جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

"حوار أهل النار مع الله العزيز القهار في القرآن الكريم- دراسة بلاغية"

إعداد

د/ محمد بلتاجي بلتاجي العشري
مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

(العدد الثاني والأربعون)
(الإصدار الأول٠٠٠أبريل)
(الجزء الثالث (١٤٤٤هـ /٢٠٢٣م)

الترقيم الدولي للمجلة(ISSN)2536-9083)
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٣/٦٢٧١م

حوار أهل النار مع الله العزيز القهار في القرآن الكريم- دراسة بلاغية

محمد بلتاجي بلتاجي رزق العشري
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، إيتاي البارود ، جامعة الأزهر، مصر،
البريد الإلكتروني: muhamadaleishriu@yahoo.com

ملخص البحث:

مما لاشك فيه أن القرآن الكريم بلغ الغاية وتمام النهاية في فصاحته وبلاغته وإعجاز نظمه واستيفاء معانيه، مما جعل أرباب البيان يركعون له إعظامًا وإجلالًا، يشيدون بعظمته وإحكام نسجه، ويبينون جواهره للناس، لا سيما في طريقة سرده للقصص الموجودة فيه، والتي دعانا لأخذ العبرة منها لنحتاط ولا نقع فيما وقعوا فيه لا سيما إذا كان ما وقعوا فيه أمورًا تُدخل النار. هذا ومن أهم القصص التي يجب أن يقف معها الإنسان تلك التي تحدثت عن أهل النار وحالهم بعدما عاينوا ما أُعد لهم من العذاب المقيم الذي يستحقونه؛ وقد آثرت أن أوقف مع حوارهم مع الله تعالى، فوجهت وجهي إلى هذه المواضع في القرآن الكريم فوجدتها غنية بالفنون البلاغية التي أكسبتها صياغة خاصة ومعاني خاصة تضمن بقاءها على هذا النحو من الخصوصية والفخامة، فوقفت معها محاولًا كشف مكنونها، متأملًا صياغتها، ومتسائلًا كيف قامت البلاغة العربية بأساليبها المتنوعة في إبراز هذا الجانب المهم من حياة أهل النار في الآخرة. هذا وقد انتظم البحث في مقدمةٍ عرفت فيها بالبحث وأهميته ومنهجه وخطته، وتمهيدٍ ذكرت فيه تعريف الحوار تعريفًا موجزًا، ومبحثين تحتهما مطالب، وجاء المبحث الأول بعنوان: حوار أهل النار في سياق طلب خروجهم منها، وفيه ثلاثة مطالب، المطلب الأول بعنوان : خروج ممتنع، والمطلب الثاني: صراخ ولا نصير، ثم يأتي المطلب الثالث بعنوان: صمت دائم. أما المبحث الثاني فجاء بعنوان: حوار أهل النار في سياق طلب الرجوع من النار والتأخير إلى أجل قريب. وفيه مطلبان، المطلب الأول بعنوان: حوار أهل النار في سياق طلب الرجوع إلى الدنيا، المطلب الثاني بعنوان: حوار أهل النار في سياق طلب التأخير إلى أجل قريب، ثم خاتمة البحث ومراجعه. والله أسأل أن ينفع بهذا البحث البلاد والعباد إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الكلمات المفتاحية: حوار، أهل، النار، الله العزيز، القهار.

The dialogue of the people of Hell with God, the Mighty, the Omnipotent
In the Holy Quran - a rhetorical study

Mohamed Beltagy Beltagy Rizk El-Ashry
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Itay Al-Baroud, Al-Azhar University - Egypt.

Email: *muhamadaleishriu@yahoo.com*

Abstract :

There is no doubt that the Noble Qur'an has reached the goal and the completeness of its end in its eloquence, eloquence, miraculous arrangement, and completeness of its meanings, which made the masters of eloquence bow to it with veneration and reverence, praising its greatness and the precision of its weaving, and showing its gems to people, especially in the way it tells the stories that are in it, which called us to take a lesson from it. The stories of the forefathers, let us be on the safe side, and do not fall into what they fell into, especially if what they fell into was matters that could lead to fire. This is one of the most important stories that a Muslim should stand with, those that talked about the people of Hell and their condition after they witnessed what was prepared for them of the lasting torment that they deserve. And I chose to stop with their dialogue with God Almighty, so I turned my face to these places in the Holy Qur'an and found them rich in rhetorical arts that gave them special formulation and special meanings that guarantee their survival in this way of privacy and grandeur. Arabic in its various ways to highlight this important aspect of the life of the people of Hell in the Hereafter. The research was organized into an introduction, a preface, and five demands. Each demand included a scene from the scenes of the dialogue, and each demand was titled with what suits it from the context of the noble verses contained in it. The first demand came under the title: A call to abhorrence from God Almighty, and the second came under the title: Shame and Oblivion, and the third came. Titled: The Reward of One Who Does Not Admonish Others, and the fourth came under the title: Screaming and Wailing, and the fifth came under the title: Permanent Silence, then the conclusion comes, and then I appended the research with references, and I ask God that this research will benefit the country and the servants, for He is the Guardian and the Able to do so

Keywords: *Dialogue, People, Fire, God Almighty, Subjugation..*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وبعد

فمما لاشك فيه أن القرآن الكريم بلغ الغاية وتمام النهاية في الفصاحة والبلاغة وإعجاز نظمه واستيفاء معانيه، مما جعلت أرباب البيان يركعون له إعظامًا وإجلالًا، يشيدون بعظمته وإحكام نسجه، ويبينون جواهره للناس، لا سيما في طريقة سرده للقصص الموجودة فيه، والتي دعانا لأخذ العبرة من قصص السابقين قال تعالى:" **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**" (يوسف: ١١١).

ومن أهم القصص التي يجب أن يقف معها الإنسان المسلم تلك التي تحدثت عن أهل النار وحالهم بعدما عاينوا ما أُعد لهم من العذاب المقيم الذي يستحقونه؛ وذلك لأن الناس تكون أشد استجابة وخوفًا وتنبهًا في مقام الترهيب والزجر والوعيد، وقد تأملتُ حديث القرآن الكريم عن محاورات أهل النار فوجدتها محاورات متنوعة، فتارة يتحاورون مع الله جل جلاله، وتارة يتحاورون مع الملائكة الكرام، وأخرى يتحاورون مع أهل الجنة، وأخيرًا يتحاورون مع بعضهم ، وقد آثرت أن أتوقف مع حوارهم مع الله تعالى لأنه أصل ما بعده من حوار، فالله تعالى وحده يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، لذا فإني وجهت وجهي إلى هذه المواضع في القرآن الكريم محاولًا كشف مكنوناتها، متأملًا صياغتها، متسائلًا كيف قامت البلاغة العربية بأساليبها وموضوعاتها في إبراز هذا الجانب المهم من حياة أهل النار في الآخرة، موقنًا أن بلاغة القرآن سر قوي من أسرار إعجازه ، فالإلمام بعلوم البلاغة يجعلنا نقف أكثر وأكثر على وجوه الإعجاز المكنونة فيه.

هذا ومع وجود كتابات كتبت عن الحوار في القرآن الكريم بصفة عامة إلا أن هذا البحث تميز بوقفته المتأنية المتعايشة مع كل مشهد من المشاهد التي حاور فيها أهل النار الخالق جل وعلا، تلك الوقفة التي من خلالها نخرج بخصائص هذا الحوار معتمدًا على المنهج التحليلي في رصد هذه الخصائص.

هذا وقد وردت هذه المحاورات مرتبة في الحديث الذي ذكره الإمام البيهقي عن محمد بن كعب القرظي[1] إلا أنني آثرت أن أضم سياقات طلبهم للخروج إلى بعضها فأجعلها في مبحث مستقل ثم أجعل طلبهم للتأخير والرجوع في مبحث آخر تقليلًا للتقسيمات وتعميما للفائدة في النظر إلى خصوصية كل حوار من حيث الطلب والجواب ، كما قدمتُ ذكر أهل النار في عنوان البحث؛ لأنهم هم المحتاجون

---

(١) ورد في الحديث أنه قال: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى في أربع منها فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا، يقولون: رَبَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ [غافر: ١١] فيجيبهم الله عز وجل ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ [غافر: ١٢] ثم يقولون: رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ [السجدة: ١٢] فيجيبهم جل شأنه فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا [السجدة: ١٤] الآية، ثم يقولون: رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ فيجيبهم تبارك وتعالى أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ الآية، ثم يقولون: رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم جل جلاله أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ [فاطر:٣٧] فيقولون: رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ [المؤمنون: ١٠٦] فيجيبهم جل وعلا اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ [المؤمنون: ١٠٨] فلا يتكلمون بعدها إن هو إلا زفير وشهيق، وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم" ينظر: البعث والنشور للبيهقي ١/ ٣٢٨، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي(ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: الشيخ عامر أحمد حيدر، الناشر: مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.

للمحاورة، ولأن من عادة الطالب أن يبدأ بعرض طلبه، وهذا ما ذكر في الحديث السابق من أنهم يدعون والله تعالى يجيبهم.

وقد انتظم البحث في مقدمةٍ عرفت فيها بالبحث وأهميته ومنهجه وخطته، وتمهيدٍ ذكرت فيه تعريف الحوار تعريفًا موجزًا، ومبحثين تحتهما مطالب، جاء المبحث الأول بعنوان: حوار أهل النار في سياق طلب خروجهم منها، وفيه ثلاثة مطالب، المطلب الأول بعنوان : خروج ممتنع، والمطلب الثاني: صراخ ولا نصير، ثم يأتي المطلب الثالث بعنوان: صمت دائم. أما المبحث الثاني فجاء بعنوان: حوار أهل النار في سياق طلب الرجوع من النار والتأخير إلى أجل قريب. وفيه مطلبان، الأول بعنوان: حوار أهل النار في سياق طلب الرجوع إلى الدنيا، المطلب الثاني بعنوان: حوار أهل النار في سياق طلب التأخير إلى أجل قريب، ثم خاتمة البحث ومراجعه.

هذا و أسأل الله تعالى أن يكون هذا العلم من العلم الذي يكتب بنبض الحياة، وألا يكون من هذه السطور التي كتبت على أكفان التاريخ، فالناس محتاجون إلى تناول مثل هذه المواضيع المهمة التي تتعلق بحياتهم، وتمس كل فرد من أفراده، وتبصر الإنسان بطريقه، وتعرفه عواقب الطرق الأخرى فيلتزم ما أحله الله تعالى ويلحق بركب السابقين الفائزين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم آمين.

تمهيـــد

يطيب لنا في البداية أن نذكر تعريفًا مختصرًا حول المقصود بالحوار في كتب اللغة، فالحوار في اللغة مصدر حاور يحاور محاورة، والمفعول محاور، ومادته الأصلية (ح و ر) تدور حول الرجوع، قال الخليل: الرجوع إلى الشيء وعنه(١)، وقال ابن فارس : الحاء والواو والراء ثلاثة أصول: أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دورا (٢).

ومن هذا المعنى الأصلي (الرجوع) اشتقت دلالة الحوار، والتي تعني التخاطب والتجاوب ومراجعة الكلام بين اثنين فما فوقهما.

ويعد الحوار في الكتب السماوية " أحد أبرز العناصر التعبيرية والتصويرية التي يسعى فيها الخالق عز وجل إلى تجسيد الحجة والدليل في الجدل الإيماني بين الأنبياء والناس أو ليكون الحوار واسطة لبناء حكائي يروي عن الأمم السالفة عِبَرًا وأحداثًا. والحوار في القرآن الكريم هو جزء مهم من أساليب القرآن له خصائصه وأهدافه فهو يتسم بأنه محرك حي للأحداث ولا سيما في القصة الحوارية وهو مصور للشخصيات ، وقد تجلت عدة "(٣).

---

(١) معجم العين، باب الحاء والراء ،٣/ ٢٨٧ تأليف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

(٢) مقاييس اللغة مادة: حور. المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٣) الحوار القصصي تقنياته وعلاقاته السردية– دراسة أدبية صـ ١٨، تأليف: فاتح عبد السلام، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر– بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٩م .

المبحث الأول:

حوار أهل النار في سياق طلب خروجهم منها

المطلب الأول: خروج ممتنع

قال تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ"(غافر:١٠-١٢).

معنى الآيات ومناسبتها لما قبلها:

هذا موقف من المواقف التي ينادى فيها أهل النار بعدما رأوا مصيرهم في النار، وتبين لهم خطأ سيرهم وصدق ما كانت رسل الله الكرام تخبرهم به فمقتوا أنفسهم ، فينادون بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا أكبر من مقتكم لأنفسكم في الآخرة ، وذلك بسبب إعراضكم عن الإيمان بالله تعالى وتوحيده وإفراده بصنوف الطاعات. فوقفوا يحاورون العزيز القهار جل جلاله، ويعترفون بذنوبهم، ويطلبون الغوث والخروج من النار بأي وسيلة تُذكر ليعملوا من الصالحات . لكن الله تعالى لا يُبَدِّل قوله ولا حكمه فقد حكم عليهم بدوام الخلد في النار ، ليس ظلمًا لهم – وحاشاه سبحانه– وإنما بما كسبته أيديهم . فالآيات "شروع في بيان أحوال الكفار بعد دخول النار يُنادَوْنَ وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم الأمّارة بالسوء التي وقعوا فيما وقعوا باتباع هواها حتى أكلوا أناملهم من المقت"(١).

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٣٠٣/١٣، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

التحليل البلاغي:

بدأ هذا المشهد الحواري بقول الله تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ" فجاء الأسلوب في صورة الأسلوب الخبري المؤكد بـ" إن" واسمية الجملة لأنه يحكي موقفًا من المواقف الأخروية التي لم يشاهدها هؤلاء المشركون ولا غيرهم من المؤمنين فناسب ذلك أن يؤكد تقويةً لهذا الكلام وتقريرًا لوقوعه ومنعًا من الشك والريبة من هؤلاء المشركين.

وجاء المسند إلية معرفًا بالموصولية للإشارة إلى وجه بناء الخبر فهؤلاء الكافرون ينادون دائمًا بما فيه خسارة لهم تنكيلًا بهم وتبكيتًا لهم وجلبًا لِغَمٍ مقيم لا يحول ولا يزول إلى جانب ما هم فيه من العذاب المهين.

ومجيء الفعل" ينادون" على صورة المضارع الدال على التجدد والاستمرار فيه مزيد من التبكيت لهم ، فهم يبكتون كل حين عن طريق تكرار هذا النداء، وحذف المسند إليه للعلم به، ولأن الغرض هو بيان مناداة أهل النار وإخبارهم بهذا الأمر من غير تعيين المنادي ولذا جاء الفعل هنا مبنيًا للمفعول ، والمنادِي هم الملائكة من خزنة النار أو المؤمنون جلبًا للحسرة عليهم حين يرون المؤمنين وقد سبقوا إلى ما وعدهم الله به من النعيم وهم مخلدون في نار الجحيم.

وقوله تعالى:" لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ" اللام للابتداء، والمقت هو" أشد البغض"[1]، ومجيء هذه الجملة في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام يُبين دوام مقت الله تعالى لهم، وسخطه عليهم،

---

(١) لسان العرب مادة: مقت. المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.

ولأن المقام مقام غلبة وقهر كان التعبير باسم الألوهية فلا مجال في هذا الموقف لما يقتضيه التعبير باسم الربوبية من التعهد والرعاية وإغداق النعم لأنهم استحقوا ما هم فيه من العذاب حين كفروا بالله تعالى وقابلوا نعم الله تعالى بالجحود والشرك.

والإضافة هنا من إضافة المصدر لفاعله، وحذف المفعول للعلم به ولأنهم ليسوا أهلًا للذكر فهم يعيشون في مقت الله تعالى.

والتعبير باسم التفضيل" أَكْبَرُ" دال على أن مقت الله تعالى زاد على مقتهم وفاق كل مقت مقتوه لأنفسهم، وهو يعكس مدى سخط الله عليهم. وجملة" أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ" مقدمة على قوله تعالى:" إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ" ففيه تقديم العقوبة على الذنب؛ ليلفت نظر هؤلاء الكافرين إلى شدة عقوبتهم، وإلى شناعة وجُرم ما ارتكبوه من الكفر وعدم تصديق الرسل، وتقدير الآية: إن الذين كفروا ينادون لمقت الله إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم.

والتعبير بالمقت" مجاز مرسل أطلق على المعاملة بآثار البغض من التحقير والعقاب فهو أقرب إلى حقيقة البغض لأن المراد به أثره وهو المعاملة بالنكال"[1].

هذا وقد اجتمعت كلمة المفسرين أن مقت هؤلاء الكفار لأنفسهم يكون في الآخرة، واختلفوا في مقت الله لهم فقيل في الآخرة وقيل في الدنيا وعليه أغلب الآراء ولا مانع أن يجتمع عليهم مقت الله تعالى في الدنيا والآخرة، فالله تعالى مقتهم في الدنيا حين تركوا الإيمان وآثروا طريق الشرك، ومقتهم في الآخرة فجعلهم خالدين في شَرَك جهنم.

" وفي تفسير مقتهم أنفسهم وجوه الأول: أنهم إذا شاهدوا القيامة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على إصرارهم على التكذيب بهذه الأشياء في الدنيا الثاني: أن الأتباع يشتد

---

(١) التحرير والتنوير ٩٦/٢٤، المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

مقتهم للرؤساء الذين دعوهم إلى الكفر في الدنيا، والرؤساء أيضا يشتد مقتهم للأتباع فعبر عن مقت بعضهم بعضا بأنهم مقتوا أنفسهم، كما أنه تعالى قال: **فاقتلوا أنفسكم** [البقرة: ٥٤] والمراد قتل بعضهم بعضا الثالث: قال محمد بن كعب إذا خطبهم إبليس وهم في النار بقوله وما كان لي عليكم من سلطان إلى قوله ولوموا أنفسكم [إبراهيم: ٢٢] ففي هذه الحالة مقتوا أنفسهم"(١).

و" إذ" ظرف متعلق بـ" مقت الله"، وقيل بفعل محذوف تقديره: مقتكم إذ تدعون، وجملة " تدعون" في محل جر بإضافة الظرف إليها، وجاء الفعل" تُدْعَوْنَ" مبنيًا للمجهول للعلم بالفاعل، فهم كانوا يدعون من قِبَلِ أنبيائهم وأتباع الأنبياء" إِلَى الْإِيمَانِ" التعبير بـ إلى يفيد انتهاء الغاية وأن غاية الرسل من أقوامهم هي الإيمان بالله تعالى وصرف العمل له وحده سبحانه ، وهي الغاية الأسمى التي ينبغي أن يسعى لها ويحرص عليها كل إنسان أراد أن يتعلق بطوق النجاة. لكن هؤلاء الكافرين حين سمعوا دعوة أنبيائهم كفروا بها، قال تعالى:" فَتَكْفُرُونَ" التعبير بفاء العطف التي تفيد السرعة والتعقيب دالة على سرعتهم في رد ما دُعوا إليه من الإيمان بالله وحده، فلم يقفوا مع كلام أنبيائهم وقفة المتأمل المعتبر الباحث عن الهداية، ولم يفكروا في كنه هذه الدعوة المباركة إنما بادروا بالرد والتكذيب فوقعوا في الكفر والتخريب وتمادوا أكثر وأكثر فحاربوا أنبيائهم ومَن تبعهم حتى وصل بهم الحال إلى قتل أنبياء الله تعالى، وقتل كثير ممن تبع الدعوة المباركة.

وكذلك التعبير بالفعل المضارع" تكفرون" دال على تجددهم في كفرهم وتماديهم فيه ، وإسناد الفعل لواو الجماعة يعمم هذا الكفر عليهم ، ويعمم هذه العقوبة التي استحقوها.

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٩٤/٢٧. أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠هـ.

فما كان لهم رد سوى التضرع والخضوع وإظهار المسكنة لله تعالى أملًا في فكاك رقابهم وخروجهم من النار، قال تعالى:" قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا..." الفصل بين هذه الآية والتي سبقتها لشبه كمال الاتصال فهي بمنزلة جواب عن سؤال مفاده: ماذا كان ردهم حين نادتهم خزنة النار؟ فلشدة الترابط بين السؤال والجواب استغنت الجملة عن الوصل الخارجي بأحد حروف العطف مكتفية بما فيها من وصل داخلي متين.

ومن الواضح أنهم كغيرهم من أهل النار – كما سيأتي– آثروا نداء الله تعالى باسم الربوبية وهو الاسم الذي يأتي غالبًا في سياق التفضل والإنعام قال تعالى:" **إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا**" (الإسراء:٣٠) ، وقال تعالى:" رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا"(الإسراء:٦٦) فآثروا النداء بهذا الاسم طمعًا في مزيد نعم الله عليهم ومَنًّوا أنفسهم بالخروج، وهذا يعكس ما بداخلهم من أمل في الخروج من النار إذ يذكرهم هذا الاسم بتعهد الله تعالى إياهم بالتربية وموالاتهم بصنوف النعم، والأمل إذا زاد وعظم فيه الرجاء ثم جاء الأمر بعد ذلك مخيِّبًا لما أَمَّلُوه وَرَجَوه كان هذا أشد ألَمًا للنفس والبدن.

هذا ولم تتحد كلمة المفسرين حول المراد بالموتتين والحياتين فقيل: الموتة الأولى: الحالة التي كانوا عليها قبل أن يُخلَقُوا، والموتة الثانية عند انقضاء آجالهم في الدنيا قال علامة الزمان الإمام الزمخشري:" خلقهم أمواتا أوّلا، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحياءة الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. وناهيك تفسيرا لذلك قوله تعالى وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ"[1]، وقيل الإماتة الأولى عند انخرام الأجل والثانية

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل٤/١٥٤، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.

في القبر بعد الإحياء للسؤال والإحياءان ما في القبر والبعث، إذ المقصود اعترافهم بعد المعاينة بما غفلوا عنه ولم يكترثوا به"[١].

وقولهم:" فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا" اعتراف منهم بصدق الله تعالى في أخباره التي سيقت على لسان الأنبياء والرسل، وإقرار منهم بما ارتكبوه من المعاصي، والفاء تفريعية أو سببية، والاعتراف هو السكون والطمأنينة، وإسناد الفعل إلى هذه الـ" ناء" لا يفيد تعظيمًا لهم إنما أفاد خروجهم من مرحلة الشك التي قضوا فيها أعمارهم إلى مرحلة السكون والطمأنينة التي حدثت بسبب ما عاينوه من صدق الله تعالى، لكنهم وصلوا إليها بعد فوات الأوان، كما يتلاقى ضمير الجمع هنا (نا) مع (نا) الجمع الموجودة في " ربنا، أمتنا، وأحييتنا" ويتلاقى مع واو الجماعة في " كفروا، وينادون، وتدعون ، وتكفرون" لكي يكون الحكم عامًا ويشملهم جميعًا.

والباء الداخلة على " بذنوبنا" للإلصاق، وتفيد بأن ذنوبهم لا تنفك عنهم، فلن يستطيعوا التنصل منها، كما يفيد التعبير أنهم كانوا لا يمشون موضع قدم في الدنيا دون ذنوب لذا جاءت مجموعة وملصقة بهم ، وكأنهم يهونون مما ارتكبوه حين عبروا بلفظ الذنوب دون لفظ الكفر والشرك الذي وقع منهم، ومعلوم أنه لا يُخَلَّدُ في النار مذنب وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى يقول في حديثه القدسي :أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان"[٢]، وقال – أيضًا–:"أخرجوا من النار من قال : لا إله إلا الله"[٣].فهؤلاء عبروا بالذنوب دون الكفر، ولعلهم لمَّا امتن عليهم ربنا جل وعلا بالخطاب فُتح لهم بابُ الأمل ووقفوا معترفين مؤملين

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٥٣/٥، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ.

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية، رقم الحديث (٢٩٩).

(٣) مسند الإمام أحمد (١٢٧٧٢).

الخروج، فعبروا بالذنوب تهوينًا لما فعلوا على عادة من يأتي معتذرًا طامعًا في كرم من يخاطب فإنه يقول: إن الأمر هين، ولا يستحق المعاقبة وهكذا...

لكن القضية يومئذ قضية إيمان وكفر ، ومن تأمل الآية التي تلي هذه الآية الشريفة التي نصت على اعترافهم وجدَ أن الله تعالى علل لهم عدم خروجهم من النار بأنهم دعوا إلى الإيمان به سبحانه فكفروا وأشركوا، فلا تتحدثوا عن الذنوب فالله تعالى قال:" **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا**" (النساء: ١١٦).

وبعد أن قدموا الاعتراف بالذنوب لمطلبهم الأسمى طلبوه صراحة فقالوا: " فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ " وهذه جملة إنشائية استفهامية الغرض منها التضرع والاستعطاف وتمني الخروج من النار، وجاء التمني بـ"هل" دون ليت لإبراز الأمر المتمنى في صورة الأمر الممكن الوقوع(١)، وهذا يعكس كمال عنايتهم بهذا الأمر وبالغ رغبتهم في وقوعه، وحُمِلَت " هل" هنا على التمني ولم تحمل على الاستفهام؛ لأنهم تمنوا الخروج من النار وهذا أمر محال لأنهم وقعوا في الشرك والكفر.

وجاء تنكير لفظ" خروج" مفيدًا النوعية، فهم يطلبون أي نوع من أنواع الخروج، فالغاية هي الخروج، و" من" في قولهم:" من سبيل" تفيد توكيد العموم الذي طلبوه في الخروج، وكذلك توكيد العموم الموجود في " سَبِيل" فإنه نُكِّرَ – أيضًا– لإفادة النوعية.

والسبيل: الطريق، وفيه استعارة تصريحية، حيث شبه الوسيلة بالطريق بجامع بلوغ المراد واستعير السبيل للطريق على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والاستعارة

---

(١) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ٥٣/٣، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت: ٧٣٩هـ)، شرح وتعليق الدكتور: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

بالغت في رصد مدى شغفهم بالخروج ورغبتهم فيه بأي وسيلة، ومما يؤكد هذا الشغف أنهم قدموا المسند " إلى خروج" على المسند إليه " سبيل" ومعلوم أنهم يقدّمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أغنى، وإن كانا جميعاً يُهِمّانِهم ويَعْنِيانهم كما قال سيبويه[1] . ويعكس هذا – من جانب آخر– أنهم بلغوا قمة اليأس والقنوط من إمكانية الخروج، قال الزمخشري– رحمه الله–:" وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط. وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيرا"[2].

قوله تعالى:" ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ" بين هذه الآية والآيات السابقة جواب طلب محذوف لدلالة الحال والسياق عليه، وذلك لأنهم طلبوا الخروج من النار بأي وسيلة وطريقة فكان الجواب: لا خروج لكم، ثم تأتي هذه الآية مفصولة عن سابقتها على طريقة الاستئناف البياني لتعلل لهم عدم الخروج من النار.

وقوله تعالى:" ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ" التعبير باسم الإشارة لتمييز المشار إليه أكمل تمييز، والكاف خطاب لهؤلاء الكافرين يستوجب انتباههم لمعرفة ما عليه مدار الأمر في الخلد في النار والخروج منها، والباء الداخلة على "أَنَّهُ" للسببية كذلك اقتران ضمير الشأن والقصة بـ" أن" ليفسر ما يذكر بعده، وكل هذه المقدمات تتناسب مع أهمية وخطورة القضية التي ستطرح عليهم.. إنها قضية الإيمان والكفر.

"إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ" جملة كاشفة عن حالهم مع دعوتهم إلى الإيمان بالله وحده، وتقييد الفعل بأداة الشرط " إذا" التي تفيد تحقق وقوع الشرط لا تدع لهؤلاء

---

(١) الكتاب ٣٤/١، لعمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (ت: ١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.

(٢) الكشاف ١٥٥/٤.

الكافرين أي مجال للتعلل والعذر، فالدعوة تمت لهم بالفعل وتحقق وقوعها بما لا يدع مجالًا لشك، كذلك يفيد التقييد بـ" إذا" أن الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده، و يفيد التقييد– أيضًا– الرغبة في وقوع مضمون هذا الشرط والإيمان به، كذلك يفيد أن هذه الدعوة كانت أيام الدنيا فتحققت ومرت بالفعل. وحذف المسند إليه" الفاعل" للعلم به والمراد به: رسل الله الكرام أو مَن يتأتى منهم الدعوة كالعلماء.

كما أن في التعبير باسم الألوهية يتناسب غاية التناسب في مقام الدعوة إلى الإيمان بالله وحده، لأنه مأخوذ " من أله يأله إذا تحير، لأن العقول تأله في عظمته. وأله يأله ألها أي تحير، وأصله وله يوله ولها. وقد ألهت على فلان أي اشتد جزعي عليه، مثل ولهت، وقيل: هو مأخوذ من أله يأله إلى كذا أي لجأ إليه لأنه سبحانه المفزع الذي يلجأ إليه في كل أمر"(١). وعليه فالعبد إذا نظر في صفات الله تعالى ونعوت جماله وجلاله وأنه تعالى تحار العقول في جمال وجلال هذه الصفات، ومنها أنه هو المقصود المأمول في النائبات اشتد جزعه على مِن سواه فلا يبقى في قلبه إلا الله تعالى، فذكر اسم الألوهية غاية في التناسب، لكن هؤلاء أعموا أعينهم عن رؤية مشاهد الكمال والجلال لله تعالى وصموا آذانهم عن دعوة الرسل الكرام فلم ينتفعوا بشيء ووقعوا في الكفر .

قوله تعالى:" وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا" العطف بين الجملتين للتوسط بين الكمالين فهما متفقتان في الغرض العام وهو بيان سبب خلود هؤلاء الكافرين في النار وكذلك هما متفقتان في الخبرية لفظًا ومعنى، وقيد الفعل هذه المرة بأداة الشرط" إن" التي "أصلها عدم الجزم بوقوع شرطها، أو أن شرطها أمر مفروض، مع أن الإشراك محقق تنزيلًا للمحقق منزلة المشكوك المفروض للتنبيه على أن دلائل بطلان الشرك واضحة بأدنى تأمل وتدبر فنزل إشراكهم المحقق منزلة المفروض لأن المقام مشتمل على ما يقلع

(١) لسان العرب مادة: أله.

مضمون الشرط من أصله فلا يصلح إلا لفرضه على نحو ما يفرض المعدوم موجودا أو المحال ممكنا"[1].

هذا ومجيء الفعلين مضارعين بعد "إن" الشرطية جاء على الأصل، لأن الأصل ألا تدخل إن إلا على المضارع لكونها تستعمل في الاستقبال، لكن هذين الفعلين مؤولان بالماضي لأن الإشراك وقع منهم بالفعل في دار الدنيا، وقد أفاد التعبير بالمضارع الدلالة على تجدد هذا الشرك منهم وبيان أنهم لم يتركوه أبدًا بل تلبسوا به حتى مماتهم، كما يفيد التعبير – أيضًا– استحضار مشهد كفرهم بالله الواحد المستحق للعبادة وإيمانهم بما زعموا من آلهة، وهذا غاية في التبكيت والتقريع لهم. ومما زاد في تبكيتهم وتقريعهم استخدام المقابلة، حيث قوبل بين "الله وحده كفرتم" و" يشرك به تؤمنوا" وقد وضعت المقابلة الصورتين أمام أعينهم فزادوا أسفًا على أسفهم وندمًا على ندمهم.

وقوله تعالى:" **فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ**" الفاء فصيحة، أفصحت عن شرط مقدر، أي: إذا كان الأمر كذلك وقد وقعتم في الشرك فالحكم لله...، و" أل" في "الحكم" تدل على الجنس لتشمل كل حكم فهو لله وحده، والأسلوب قصر بتعريف الطرفين قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا وفي القصر تأكيد على انفراده تعالى يومئذ بالحكم والقضاء وحده كما قال تعالى:" **وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**"(غافر: ٢٠).

ومن بديع المناسبة أن يختم هذا المشهد باسمين جليلين من أسماء الله تعالى ، فاسم الله العلي من لوازم حكمه، " والعلي الذي ليس فوقه شيء في المرتبة والحكم،

(١) التحرير والتنوير ١٠١/٢٤.

وعلا على الخلق فقهرهم بقدرته، والعلي : الصلب الشديد"[١] وكل هذه المعاني من لوازم حكمه تعالى، وكلها تتماشى مع سياق العزة الموجود في الآية الكريمة، فحكمه تعالى صلب لا يُقطَع وشديد لا يُرَد، وليس هناك من يعلوه رتبة كي يفعل ذلك .

و" الْكَبِيرِ " العظيم الجليل الذي تكبر عن ظلم عباده"[٢]. فما أنتم فيه ليس ظلمًا من الله لكم – وحاشاه سبحانه أن يظلم أحدًا وهو القائل:" **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** "(يونس:٤٤) وهاتان الصفتان ثابتتان لله على الدوام ولذا كانت صياغتهما في صورة الصفة المشبهة الدالة على استمرار الحدث لصاحبه في جميع الأزمنة، فالله عليٌّ في حكمه لا ينازع، وهو كبير عن الظلم .. يضع الأمر في محله بحكمةٍ ولحكمة بالغة.

---

(١) تاج العروس، جمهرة اللغة مادة: علا. المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

(٢) لسان العرب مادة: كبر

المطلب الثاني: صراخ ولا نصير

قال تعالى:" وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ " (فاطر: ٣٦-٣٨)

المعنى العام للآيات ومناسبتها لما قبلها:

لما ذكر الله تعالى حال أصحاب الجنة، وكيف أنهم يتقلبون في نعيم الله تعالى فيلبسون من الحرير وتتزين سواعدهم بأساور الذهب والفضة، ذكر ما يقابلهم من أهل النار من أنهم دائمون في العذاب لا ينفك عنهم فيزول عنهم هذا العذاب ولا يقضى عليهم فيستريحوا بالموت منه ، وإنما حالهم صياح وصراخ وتضرع ، فالآيات فيها مقابلة سياقية بين صورتين متقابلتين صورة الأمن والراحة والنعيم وصورة القلق والاضطراب والعذاب المقيم الذي لا يحول ولا يزول؛ لتكون هذه الآيات حجة ظاهرة على بني البشر الذين يقرؤونها.

التحليل البلاغي:

قوله تعالى:" وَالَّذِينَ كَفَرُوا.." إلخ هذه الواو عطفت هذه القصة على القصة التي قبلها، وجاء المسند إليه فيها معرفًا باسم الموصول وفيه إشارة إلى وجه بناء الخبر فمعلوم أن الله تعالى بعد ما ذكر أهل الإيمان وجزاءهم وتحدث عن الذين كفروا سيذكر مصيرهم وعقوبتهم.

والكفر أصله الستر وهؤلاء تستروا بالكفر وارتضوه ساترًا لهم ، يقال:" رَجُلٌ كَافِرٌ: جَاحِدٌ لأَنْعُمِ اللَّهِ، مُشْتَقٌّ مِنَ السَّتْرِ، وَقِيلَ: لأَنه مُغَطًّى عَلَى قَلْبِهِ"(١).

وقدم الجار والمجرور" المسند" على المسند إليه " نار جهنم" للتخصيص، فنار جهنم مختصة بهؤلاء الكافرين وهم مختصون بالعذاب فيها، إلى جانب ما في هذا التقديم من تشويق لمعرفة ما لهم من العذاب.

هذا ومن تأمل نظم القرآن يجد أن الله تعالى تارة يفرد ذكر جهنم عقوبة للكافرين ومَن هم على شاكلتهم كقوله تعالى:" **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** (آل عمران: ١٢) ، وقوله تعالى: **وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا** (مريم: ٨٦)، وتارة يفرد ذكر النار فقط عقوبة لهم كقوله تعالى: **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ** (هود: ١٠٦) أما هنا فقد جمع بينهما في رباط واحد، قال تعالى:" لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ" ولم يرد هذا الجمع في القرآن إلا في تسعة مواضع(٢) فقط كلها نزلت في عقوبات شديدة استدعت هذا الاقتران كي ينظر المرتكب إلى النار التي مقرها جهنم ويستحضر كنه الاسمين في ذهنه فيكف ويرتدع ويعود إلى صراط الله القويم، فمن هؤلاء من يمنعون الزكاة ويأكلون حق الفقراء فتحمى عليهم في نار جهنم، و منهم من تقاعس عن الحرب مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– متعللين بحرارة الجو فليتأملوا حرارة نار جهنم، وغيرهم حاد الله ورسوله فخُلِّدَ في نار جهنم، ومنهم مَن أسس مسجدًا ضرارًا للتفرقة بين المسلمين ويترصدون لأذى المؤمنين فكانت نار جهنم لهم بالمرصاد ، فالقرآن لم يرد من هؤلاء أن يتخيلوا نارًا فحسب وإنما يستحضروا كون

---

(١) لسان العرب مادة: كفر.

(٢) التوبة (٣٥، ٦٣، ٦٨، ٨١، ١٠٩، فاطر:٣٦، الطور:١٣، الجن:٢٣، البينة: ٦).

هذا النار في جهنم وما لكل اسم من خصيصة تميز بها فيحصل لهم رعب فوق رعب وكرب فوق كرب.

ثم فَصَّل الله تعالى الحديث عن هؤلاء الكافرين وذكر حالهم في نار جهنم فقال:" **لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا**"

" والقضاء: حقيقته الحكم، ومنه قضاء الله حكمه وما أوجده في مخلوقاته. وقد يستعمل بمعنى أماته كقوله تعالى: فوكزه موسى فقضى عليه [القصص: ١٥] . وهو هنا محتمل للحقيقة، أي لا يقدر الله موتهم، فقوله: فيموتوا مسبب على القضاء. والمعنى: لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا، ومحتمل للمجاز وهو الموت. وتفريع فيموتوا على هذا الوجه أنهم لا يموتون إلا الإماتة التي يتسبب عليها الموت الحقيقي الذي يزول عنده الإحساس، فيفيد أنهم يماتون موتا ليس فيه من الموت إلا آلامه دون راحته"[(١)]. وحمل المعنى على المجاز أبلغ في تصوير ما يلاقونه من صنوف العذاب الذي يجعلهم يتجرعون غصص الموت ويلاقون هوله وكدره لكنهم لا يستريحون بخروج الروح إذ هم خالدون مخلدون في النار والعياذ بالله تعالى.

والغرض من جملة:" لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ..." هو تيئيس هؤلاء الكفار وقطع أملهم من الخروج من العذاب ولاشك أن في هذا مزيدًا من الألم والعذاب.

والتعبير بالفعل المضارع في" يقضي، يخفف" بدلالته على التجدد والاستمرار يعكس أن هذا حالهم لا ينفك عنهم فهم في عذاب متجدد ومستمر، ثم ختمت الآية الكريمة بجملة التذييل " كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ"، والتذييل هو:" وهو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد" وهو هنا من النوع غير جار مجرى المثل لاعتماد

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣١٧، ٣١٨.

هذه الجملة على الجملة الأولى في فهم معناها للتوكيد[١]، وقد أفاد تأكيد جزاء هؤلاء الكافرين.

وإذا تأملنا نظم جملة التذييل وجدنا أن الكاف الداخلة على اسم الإشارة عملت على إلصاق هذا العقاب بهؤلاء الكافرين، وجاء اسم الإشارة الذي يشار به للبعيد ليبين عظمة هذا العذاب، ويعكس بُعد هؤلاء القوم من رحمة الله تعالى ... أرسل إليهم الرسل وعرَّفهم طريقه سبحانه، وخلق لهم عقلًا يبصرون به كنه الأمور فلم يلتفتوا لما جاءهم فاستحقوا العذاب، ثم كان التعبير بالفعل المضارع المبدوء بنون العظمة ليرهب هؤلاء الكافرين عبر مختلف العصور أن الله تعالى مؤاخذهم بكفرهم، لا يتفلت منهم أحد، فكلهم في قبضته تعالى كفرد واحد لذا كان التعبير بلفظ " كل" الذي أفاد العموم والشمول لكل كفور، أما التعبير بصيغة المبالغة فيعكس أن هؤلاء تمادوا في كفرهم وبالغوا فيه فاستحقوا ما هم فيه من العذاب.

ثم يكشف الله تعالى عن حال هؤلاء الكافرين في النار فقال تعالى:" وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا" الجملة حالية وجب اقترانها بواو الحال لأن" المبتدأ من الجملة ضمير ذي الحال "[٢]، كما أن دخول الواو على هذه الجملة جعلتها في حيز الاستئناف فلم تعطف على ما قبلها وإنما هي مستأنفة لخبر جديد عن هؤلاء الكافرين.. هذا الخبر أهلٌ لأن يكون في طليعة الكلام لأنه يحكي مقطعًا مهما من مقاطع الكلام، قال الشيخ:" كل جملة وقعت حالًا ثم امتنعت من "الواو" فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد،

---

(١) الإيضاح ٣/٢٠٥.

(٢) دلائل الإعجاز في علم المعاني صـ٢٠٢، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

وكل جملة جاءت حالا، ثم اقتضت "الواو"، فذاك لأنك مستأنف بها خبرا، وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات"[١].

وقد افتتحت الجملة بالحديث عن هؤلاء الكافرين بضمير الغيبة" هُمْ" لورود ذكرهم قبل ذلك ، ولأنهم لا يستحقون أن يكونوا حاضرين أمام الأعين لا بذواتهم ولا بأسمائهم وإنما يعاملون معاملة الغائبين المطرودين من رحمة الله تعالى، ولا شك أن في هذا تحقيرًا لهم وتشنيعًا بهم ومعاناة لهم وذلك حين يعلمون أنهم عند الله تعالى لا يساوون شيئًا.

أما التعبير بالفعل " يَصْطَرِخُونَ" فإنه صور حالهم بجرسه وكنهه أفضل تصوير، فمجيئه على صورة المضارع أفاد استمرارهم في هذا الصراخ وانتفاخ بطونهم من هول هذا العذاب، وكأن هيئة رسم حرف الصاد تحاكي انتفاخ هذه البطون، ثم جاء حرف الطاء وهو من حروف القلقلة ليعكس قلقلتهم في نار جهنم ، والقلقلة تعني تكرار الحرف وتكرار هذا المشهد وقد مثله حرف الراء ، والتفخيم الموجود في حرف الخاء يبين حجم هذا العذاب وما هو عليه من الفخامة، فالكلمة بوقعها وجرسها مصورة لما هم فيه من العذاب، وهذا من إعجاز استعمال الكلمة في القرآن الكريم.

و" يَصْطَرِخُونَ" افتعال من الصراخ وهو شدة الصياح والأصل يصترخون فأبدلت التاء طاء ويستعمل كثيرا في الاستغاثة لأن المستغيث يصيح غالبا، وبه فسره هنا قتادة فقال: يستغيثون فيها، واستغاثتهم بالله عزّ وجلّ بدليل ما بعده"[٢].

أما التعبير بحرف الوعاء" في" فيعكس أنهم واقعون في قاع جهنم، وأنها احتوتهم بنارها وسمومها وزقومها وحميمها فصارت وعاء لهم تحوطهم إحاطة السوار بالمعصم،

---

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني صـ٢١٣.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٣٧٢/١١.

فراحوا يصيحون ويستغيثون: " رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ" هذه الجملة مقول لقول محذوف، ويجوز كون الجملة حالًا من ضميرهم السابق، هم الآن يعترفون بربوبية الله تعالى، ويتوسلون بمقتضى هذه الربوبية وما تحويه من الرحمة والتفضل والإنعام.

هذا وقد خرج الفعل الأمر في " أَخْرِجْنَا" إلى معنى الدعاء والتضرع لأنه صدر من الأدنى إلى الأعلى، وحذف الجار والمجرور لدلالة المقام والسياق عليه" وإما لضيق المقام، وإما لأن أنفسهم لم تساعدهم عليه لأنهم استشعروا عزة الطلب"(١). وقوله تعالى :" نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ" مجزوم في جواب الطلب، ومجيئه على صورة المضارع بدلالته على التجدد والاستمرار يشير إلى أنهم إن عادوا لظلوا يعملون الصالحات لا يتركونها أبدًا و" صَالحًا" صفة لموصوف محذوف معلوم من سياق الكلام والتقدير نعمل عملًا صالحًا، وحذف هذا الموصوف يعكس ما هم فيه من العذاب فلا يتمكنون من بسط الكلام وليس هذا بمقام بسط، وفي الحذف – أيضًا– دليل على أنهم لو عادوا فإنهم سيتقربون– على حد زعمهم– إلى الله تعالى بكل شيء.

وقوله تعالى:" غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ" اعتراف بجريرة عملهم في الماضي، وفيه كل أنواع الأسف والحسرة والتعبير باسم الموصول" الذي" فيه تحقير لشتى أنواع العمل الذي كانوا يعملونه، وهو صفة لموصوف محذوف وتقديره: غير العمل الذي كنا نعمل، وفي حذفه مزيد من التحقير لهذا العمل، وأنه لا يستحق أن يذكر مقارنة بأعمال المؤمنين الصالحة ، قال العلامة الزمخشري– رحمه الله تعالى–: " فإن قلت: هلا اكتفى بـ" صالحا" كما اكتفى به في قوله تعالى:" فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً" وما فائدة

---

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ٣/٣١٠ تأليف أ.د: عبد العظيم المطعني ، الناشر مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة ١٤٣٢هـ–٢٠١١م.

زيادة غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحا آخر غير الصالح الذي عملوه؟ قلت: فائدته زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به"(١).

ومجيء الضمائر مجموعة في" ربنا، أخرجنا، نعمل، كنا" فيها دلالة على أنهم متحدون في معاينة العذاب والإحساس بآلامه، ونتج عن هذا اتحاد في المطلب، فهم يريدون العودة إلى دار العمل ليعملوا صالحًا، لكن الله تعالى يعلم بما في نفوسهم وأنهم لو ردوا لعادوا إلى نفس عملهم الذي يتحسرون علي فعله الآن.

فجاء الجواب كالعادة مخيبًا لآمالهم، حاكمًا عليهم بالخلد في هذا الجحيم المقيم، قال تعالى:" أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ"

الاستفهام هنا للتقرير والتقريع والتوبيخ و نُعَمِّرْكُمْ:" العَمْر والعُمُر والعُمْر: الْحَيَاةُ"(٢).

ولأن المقام مقام عزة وعظمة وتفرد بالحكم جاء الفعل مبدوءًا بهذه النون الدالة على هذه العظمة، و" ما" في قوله تعالى:" مَا يَتَذَكَّرُ" اسم موصول بمعنى الذي، والإبهام الموجود في اسم الموصول هو ما أدى إلى عدم اتحاد كلمة المفسرين حول هذا العمر الذي أشارت إليه هذه الآية، فقيل: سبعة عشر عامًا، وقيل: عشرون عامًا، وقيل: ستون عاما وقيل: ما بين الستين إلى السبعين ...(٣). وأيما ما كان هذا العمر فمعلوم

---

(١) الكشاف ٣/٦١٥.

(٢) لسان العرب مادة: عمر.

(٣) يراجع تفسير ابن كثير ٦/٤٩٠ وما بعدها.

قطعًا أن طوله حجة على ابن آدم(١)، حيث تتجدد عليه مشاهد متعددة تستوجب منه التذكر ولذا كان الفعل بعد " ما" على صورة المضارع.

و" مَنْ" في قوله تعالى:" مَنْ تَذَكَّرَ" اسم موصول بمعنى الذي وهو للدلالة على عموم العقلاء، وفيه إيماء وتعريض بغباوة هؤلاء الذين لم يتذكرا ولم يعتبروا بما مرَّ عليهم في أعمارهم من الآيات البينات الواضحات التي تستوجب التذكر فهؤلاء ليسوا من جملة العقلاء وما ينبغي أن ينعتوا بذلك.

ومجيء الفعل " تذكرَ" على صورة الماضي فيه تيئيس لهؤلاء القوم، وقطع لأملهم في العودة، فمن تذكر فاز وانتهى الأمر ولا فائدة من التوسل والرجاء، والتعبير بالتذكر مجاز مرسل لعلاقة السببية ، حيث أطلق السبب وهو التذكر وأراد المسبب وهو العمل الصالح الناتج عن التذكر، وفي التعبير بالسبب بيان لأهمية التذكر والانتفاع بالآيات، وبيان أنه إذا فات التذكر ضاع العمل الصالح. ومن باب الزيادة في هذا التيئيس وقطع الحجة أنه لم يُقْتَصَرْ على ما جاء في أعمارهم مما يستدعي التذكر بل تعدى ذلك إلى إرسال النذر وبعث الرسل فقال تعالى:" وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ" والوصل بين هذه الجملة وما قبلها لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى مع اتفاقهما في الغرض العام. ولم تتحد كلمة المفسرين حول المراد بـ" النذير" فقال جمهور المفسرين: يريد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وروي عن عكرمة، وسفيان بن عيينة: أن المراد بالنذير الشيب، ومعناه: أولم يعمركم حتى شبتم(٢). والتعبير بلفظ المجيء الدال على

---

(١) يراجع تفسير ابن كثير ٤٩٠/٦ وما بعدها.

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٥٠٧/٣، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني

←←←

الثقل[1] دون الإتيان يعكس ثقل وقع هذا النذير على قلوبهم المريضة فلم يتقبلوا رؤية الشيب في عوارضهم لأنه يذكرهم بدنو موتهم، كما لم يتقبلوا وجود الرسول – صلى الله عليه وسلم– يعظهم بما يخالف هواهم المريض بحب شتى أنواع الشهوات والشبهات.

" فَذُوقُوا " التعبير بالفاء وما تفيده من التعقيب والسرعة قطع أصواتهم عن التضرع والخضوع، وأعلمهم طريقهم المحتوم، وفي التعبير بالفعل " ذوقوا" استعارة تبعية، حيث شبه دخولهم العذاب ومعاينتهم لهم بالذوق بجامع المعاينة وشدة التأثر، ثم اشتق من الذوق الفعل ذق على سبيل الاستعارة التبعية، وإسناد الذوق إلى مجموعهم يدل على أنهم جميعًا دخلوا في هذا العذاب الأليم وعاينوه. وحذف مفعول" ذوقوا" لدلالة الحال عليه، والتقدير: ذوقوا العذاب، وحذف لتذهب النفس فيه كل مذهب.

وقوله تعالى:" فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِير" نفي وجود أي نصير لهؤلاء الظالمين، وهذه جملة قطعت عليهم كل آمالهم، وفيها تبكيت لهم من جهة أخرى لأن التعبير باسم الفاعل في" الظالمين" يدل على أنهم كانوا مستمرين في ظلمهم لأنفسهم بالإشراك والمعاصي وكانوا مستمرين في ظلمهم لغيرهم بأخذ المال والاستعباد لم يتركوا ذلك حتى فارقوا الحياة فكذلك هم مستمرون وماكثون في العذاب الذي أُعد لهم.

والجملة – كذلك– فيها إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ففيها عدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر، لأنهم في خطاب مع الله تعالى، فمقتضى الظاهر أن يقال: فما لكم من نصير، وفي هذا العدول" لإفادة سبب انتفاء النصير عنهم ففي

←←←

الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م.

(١) ينظر: الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم صـ٢٢ أ. د/ محمود موسى حمدان.

الكلام إيجاز، أي: لأنكم ظالمون وما للظالمين من نصير، فالمقصود ابتداء نفي النصير عنهم ويتبعه التعميم بنفي النصير عن كل من كان مثلهم من المشركين"[1].

وفي هذا العدول" الالتفات" من الخطاب إلى الغيبة إشعار بأنهم ليسوا أهلًا للخطاب مع الله تعالى ولذا فهم غائبون عن مشهد المحاورة وإن كانوا طرفًا فيه.

ومجيء " من" دلالة على العموم، أي ليس لهم أي نصير يدفع عنهم هذا العذاب. وللقاعدة المشهور" العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" يجوز كون هذه الجملة مستقلة عامة في شأن كل ظالم على مر العصور .

ثم ختمت هذه المحاورة بما يدل على علم الله تعالى ببواطن أمورهم وبما تكن صدورهم، فقال تعال:" إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور" وقد سيقت هذه الآية الكريمة في ثوب الجملة الاسمية لتدل على دوام علم الله تعالى، كما سيقت مؤكدة لتدفع أي شبهة عند هؤلاء الكافرين ، وجاء التعبير هنا باسم الألوهية لأن المقام مقام عزة وقهر وحكم فناسبه ذلك ، ثم كان التعبير باسم الفاعل" عالم" لدلالته على الدوام والاستمرار، فعلم الله تعالى متصل ودائم ، وإذا كان الله تعالى عالم غيب السموات والأرض أي ما غاب منها عن عيون وعلم الناس فلا شك أن يعلم ما شاهده الناس فالله تعالى عالم الغيب والشهادة ، وإنما اقتصر هنا بالغيب دون الشهادة لأنهم طلبوا العودة إلى الدنيا ليعملوا من الصالحات والله تعالى لم يجب ضراعتهم فجاءت هذه الآية لتقول لهم : الله أعلم أنكم لو عدتم لرجعتم إلى ما كنتم عليه من الظلم ، ومجيء السموات مجموعة يناسب طلاقة علم الله تعالى.

وفصل بين الجملة الأولى وبين قوله تعالى:" إنه عليم بذات الصدور" لكمال الاتصال، فالجملة الثانية بمنزلة التأكيد والتفسير للجملة الأولى لأنه سبحانه إذا كان

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/٣٢٠.

عالمًا غيب السموات والأرض فلا شك أنه يعلم ما في الصدور (وذات) تأنيث (ذو) بمعنى صاحب، أي بالأمور صاحبة الصدور، ومصاحبتها لها من حيث اختباؤها فيها"[1]. ومجيء الصدور مجموعة يثبت طلاقة هذا العلم وإحاطته بكل ما في الصدور" والتعبير بالصدور مجاز مرسل لعلاقة الجزئية فأطلق الجزء وهو الصدر وأراد الكل وهو الإنسان كله، وعبر بالصدر لأن فيه مزيداً من الخصوصية فهو مكمن الأسرار.

(١) فتحُ البيان في مقاصد القرآن١١/٢٥٩، المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنَّشْر، صَيدَا – بَيروت، عام النشر: ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م.

المطلب الثالث: صمت دائم

قال الله تعالى:" أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ" (المؤمنون:١٠٥-١١١)

المعنى العام للآيات ومناسبتها لما قبلها:

هذا مشهد آخر وأخير من مشاهد حوار أهل النار مع العزيز القهار طلبوا فيه الخروج من النار، فبعدما ثَقُلت موازين أهل الجنة ففازوا أفلحوا وخَفَّت موازين أهل النار فخسروا أنفسهم وخُلِّدوا في جهنم جاء هذا الحوار الذي ألزمهم فيه ربنا جل وعلا بالحجة والبرهان، وبين لهم أنهم استحقوا الخلد في النار بسبب تكذيبهم للرسل وللآيات والبراهين الدالة على صدق الرسل في دعوتهم إلى توحيد الخالق جل وعلا لكنهم كالعادة بادروا إلى الخضوع والاعتراف بجريرة ما فعلوه، وطالبوا بالخروج من النار لكن هيهات هيهات فهذا وقت الحسرة وعدم الكلام، فلا يؤذن لهم بالكلام مرة أخرى.

التحليل البلاغي:

بدايةً يلاحظ في هذا الحوار أنه مختلف بعض الشيء في طريقة نظمه عن المشاهد السابقة حيث كانت تفتتح أولًا بتضرع أهل النار وخضوعهم ثم يجاب عليهم عن طريق الاستفهام التقريري التوبيخي الذي يقطع عليهم هذا التضرع أما هذا الحوار فتقدم السؤال على تضرعهم ليقطع عليهم هذا التضرع من بدايته فلا يُسمع لهم صوت لكنهم لما لم يلتزموا الصمت وشرعوا في تضرعهم المزعوم نهاهم الله تعالى عن الكلام

فقال:" اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ" فلا يتكلمون بعدها، ولذا كان هذا الحوار هو آخر حوار لهم .

وقد أُفتتح هذا الحوار بأسلوب الاستفهام الذي يدور حول معنى التوبيخ والتقريع والتقرير لسلب أي حجة لهم، وفي الاستفهام تبكيت لهم ؛لأن الاستفهام يحمل بين طياته تنبيهًا لا ينفك عنه، وهؤلاء إذا ما تنبهوا وتيقظوا وجدوا أنفسهم في وقتٍ لن ينفعهم فيه تنبهٌ ولا تيقظٌ، وهذا أدعى لإحساسهم بالخسران والضياع لا سيما وقد رأوا غيرهم من أهل الإيمان دخلوا في لطف الله تعالى وكرامته.

ومجيء كلمة " آيَاتِي" على صيغة الجمع يعكس مدى رحمة الله تعالى بعباده فالله سبحانه لا يأخذ عبده المذنب بجريرة عملة إلا بعد أن يسوق له كثيرًا من الآيات التي تغدو عليه وتروح فإن لم ينتفع بواحدة انتفع بالأخرى وإلا فليس له أدنى عذر عند خالقه تعالى.

والتعبير بحرف الجر" على" الذي يفيد معنى العلو، والشيء إذا كان عاليًا فهو ظاهر للجميع ففي التعبير بهذا الحرف دلالة على وضوح هذه الآيات وظهورها ظهورًا تامًا لا لبس في كونها من عند مليك مقتدر على يد رسول مكلَّف من الله تعالى، ودخول حرف الجر على ميم الجمع يبين أنهم جميعًا عاينوا هذه الآيات ولم ينتفعوا بها فلا عذر لهم ولا خلاص لهم من بطش الله وعذابه.

وقوله تعالى:" فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ" التعبير بالفاء دون غيرها من حروف العطف يعكس سرعتهم إلى التكذيب وعدم تفكيرهم في هذه الآيات وكنهها، وأنه لا يتأتى لبشر أن يأتي بمثلها، فعطلوا نعمة العقل التي وهبها الله لهم فلم ينتفعوا بهذه الآيات القاهرة الدالة على وجود الخالق المستحق للعبادة. وتقديم الجار والمجرور يبين موقفهم من هذه الآيات التي رفضوها واتبعوا ما يوافق هواهم.

ومجيء الفعل" تُكَذِّبُونَ" على صيغة المضارعة يعكس حالتهم الميؤوس منها فهم لم ولن ينتفعوا بهذه الآيات لا الآن ولا غدًا، وإسناد الفعل لواو الجماعة يبين أنهم جميعًا بادروا إلى التكذيب فاستحقوا هذا العقاب، وأن من انتفع بالآيات خرج من زمرة هؤلاء المعذَبين.

وقوله تعالى على لسانهم:" **قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ**" مجيء الفعل" قَالَ" مفصولًا عن سابقه لشبه كمال الاتصال إذ يصح كونه جوابًا لسؤال أثارته الجملة السابقة تقديره: ماذا كان ردهم على الله تعالى؟، وهذا الموضع من مواضع الفصل بين الجمل يتميز بأنه يجعل الكلام أكثر تلاحمًا لأنه يحتوي على وصل داخلي، وفيه تعويل كبير على ذهن السامع الذي يثار فيتحرك ويسأل الأسئلة التي تدل على مدى انفعاله بالأحداث ومراقبته الجيدة للكلام.

وكأنهم استشعروا الآن مدى قرب الله تعالى منهم فحذفوا أداة النداء في "ربنا"، والتعبير باسم الربوبية فيه مزيد من الاستعطاف والضراعة والمسكنة لله تعالى، حيث يسألون الله تعالى باسم الربوبية الذي رباهم وأولاهم بصنوف النعم من إرسال الرسل وإتيانهم بالآيات، والحقيقة أن هذا الاسم يسجل عليهم خطأهم في جنب الله تعالى؛ لأن من حق الذي رباهم وأولاهم بصنوف النعم أن يطيعوه ويفردوه بالعبادة وينصاعوا لكلام رسله الذين أرسلهم ليبلغوا شرعه لهم.

هذا والناظر لكلامهم يدرك أنهم بارعون في الاستعطاف والضراعة والاعتذار فهم إلى جانب تعبيرهم باسم الربوبية جعلوا أنفسهم في موضع المهزوم المغلوب على أمره فقالوا:" رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا" ومادة غلب تدور حول معنى: الاستيلاء والقهر(١).

(١) لسان العرب مادة: غلب.

والتعبير بالفعل غلب ومجيئه في صورة الماضي والتعبير بحرف الاستعلاء يعكس سيطرة وهيمنة هذه الشقوة فلم ينتفعوا معها بما جاءهم من الآيات.

والمعنى:" غلبت علينا ملكتنا من قولك غلبني فلان على كذا إذا أخذه منك، والشقاوة سوء العاقبة...وقيل: المراد أن طلبنا اللذات المحرمة وحرصنا على العمل القبيح ساقنا إلى هذه الشقاوة، فأطلق اسم المسبب على السبب. وليس هذا باعتذار منهم لعلمهم بأن لا عذر لهم فيه، ولكنه اعتراف بقيام حجة الله تعالى عليهم في سوء صنيعهم"[(١)].

هذا و" قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم" شقوتنا " وقرأ الكوفيون إلا عاصما:" شقاوتنا". وهذه القراءة مروية عن ابن مسعود والحسن. ويقال: شقاء وشقا، بالمد والقصر. وأحسن ما قيل في معناه: غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا، فسمى اللذات والأهواء شقوة، لأنهما يؤديان إليها[(٢)]، وعلى ما قرأه ابن مسعود فالتعبير بالشقاوة مجاز مرسل لعلاقة المسببية، حيث أطلق المسبب وأراد السبب في ذلك .

هذا و" نسبة الغلب إليها– أي الشقوة– لاعتبار تشبيهها بمن يتحقق منه ذلك ففي الكلام استعارة مكنية تخيلية ولعل الأولى أن يخرج الكلام مخرج التمثيل ومرادهم بذلك على جميع الأقوال في الشقوة الاعتراف بقيام حجة الله تعالى عليهم لأن منشأها على جميع الأقوال عند التحقيق ما هم عليه في أنفسهم فكأنهم قالوا: ربنا غلب علينا أمر

---

(١) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير ٢٣/٢٩٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي ١٢/١٥٣، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت:٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

منشؤه ذواتنا وَكُنَّا بسبب ذلك قَوْماً ضالِّينَ عن الحق مكذبين بما يتلى من الآيات فما تنسب إلى حيف في تعذيبنا"(١).

" وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ" هذا تكميل لاعترافهم بجريرة ما ارتكبوه، وتمَّ الوصل بين هذه الجملة والجملة السابقة للتوسط بين الكمالين، فهما متفقتان في الخبرية لفظًا ومعنى إلى جانب اتفاقهما في الغرض العام وهو الاعتراف، ثم انتقلوا من الاعتراف إلى السؤال مع علمهم أنهم في موقف المحاسبة والمجازاة والمعاقبة وإنما سألوا ذلك مع علمهم أنهم مخلدون في النار لأنهم ظنوا أن الاعتراف بالذنب قد يجدي في قبول الرجاء والدعاء، فقالوا: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا" فأعادوا استعمال اسم الربوبية محذوفًا منه أداة النداء، وكأنما راقت لهم مغفرة الله تعالى لهم، وفتح لهم باب الأمل في القبول ، ومنوا أنفسهم بالخروج من النار، فطلبوها صراحة.

ومجيء الدعاء في ثوب الأمر " أخرجنا" يعكس ما بداخلهم من رغبة صادقة وملحة في الخروج من جهنم ، والتعبير بـ" من" يدل على أن جهنم استغرقتهم جميعًا وأوجعتهم حرقًا وتعذيبًا وتحطيمًا وتقليبًا، والضمير في " منها" يعود على جهنم ، وذكرها بضمير الغائب يدل على أنها غائبة من أمانيهم بعيدة عن قلوبهم لا سيما بعدما عاينوا ما فيها من صنوف العذاب.

ولما كان حال من أراد الخروج من شيء كرهه أنه يقسم ألا يعود إلى ما كان عليه ساروا على ذلك فقالوا:" فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ" الفاء عطفت هذه الجملة على ما قبلها وقد دخلت على جملة الشرط المكونة من الفعل والجزاء والأداة وهو أسلوب يجعل الكلام يأخذ بحجز بعضه ويكون أكثر تماسكًا وتناسقًا لأنها تعلق حدوث الجزاء على حدوث الشرط، والتعبير بـ" إن" الشرطية يعكس مدى أمنيتهم في الرجوع ويبين أن

(١) روح المعاني ٢٦٦/٩.

باب عودتهم إلى ما نهوا عنه ليس مغلقًا وعليه فإنهم سيعودون لما نهوا عنه وإن استخدموا أداة الشك في العودة ولو كانوا جادين صادقين في عدم العودة للشرك والمعاصي لاستخدموا " لو" الدالة على امتناع العودة، وقد أخبر الله تعالى بذلك فقال: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ " الأنعام: ٢٨ ، والفعل " عود" أي: رجع، وفي المثل : العود أحمد"[١] وهؤلاء ليس لهم عود على الإطلاق لأنهم لن يغفر لهم ولن يسمح لهم بالكلام بعد ذلك كما ورد في نهاية الحوار، وجاء جواب الشرط مقترنًا بالفاء لأن الجواب جملة اسمية ، والتعبير بـ" إنا" دون " نحن" جعلوا أنفسهم كالنفس الواحدة في استحقاق العقاب إذا عادوا لحالتهم الأولى.

وجاء الخبر" ظالمون" على صيغة اسم الفاعل للدلالة على أنهم – إن عادوا– فهم مستمرون في ظلمهم لأنفسهم دائمون عليه لا يستحقون عفو الله تعالى.

لكنهم أُجيبوا بما يضيف إلى عذابهم عذابًا لا يطاق، إنهم طردوا من رحمة الله ، ومنعوا من الكلام قال تعالى:" قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ" والتعبير بفعل الأمر على حاله من الدلالة على الوجوب ، كما أن إيثار التعبير بـ" اخْسَئُوا " دون اصمتوا أو اسكتوا فيه مزيد من التوبيخ والمزلة والمهانة لهم ، حيث خوطبوا بما تخاطب به الكلاب ، والمعنى: ابعدوا ولا تقتربوا، والفعل أسند إلى واو الجماعة ليعمهم جميعًا هذا الأمر وتغشاهم هذه المهانة. وقالَ الله سبحانه وتعالى هذا الكلام" إقناطًا لهم أشد إقناط اخْسَؤُا فِيها أي ذلوا وانزجروا انزجار الكلاب إذا زجرت من خسأت الكلب إذا زجرته فخسأ أي انزجر أو اسكتوا سكوت هوان ففيه استعارة مكنية قرينتها تصريحية"[٢].

---

(١) لسان العرب مادة: عود.

(٢) روح المعاني ٢٢٦/٩.

أما حرف الظرفية والوعاء" في" فإنه دال على تمكن النار منهم واستقرارهم في قعرها، فلا يقعون على حوافها– وإن كانت لكفيلة على تعذيبهم وإيلامهم أشد الإيلام– ثم عطفت جملة أخرى على الجملة السابقة لاتفاقهما في الإنشائية لفظًا ومعنى إلى جانب اتفاقهما في الغرض العام ففيها مزيد من التوبيخ والتقريع والتيئيس لهم ومضاعف العذاب فلا ينطقون بالمفهوم من الكلام إنما يصرخون كما تصرخ الكلاب جاء في كتب التفاسير أن هذا هو آخر كلام لهم وما بعد ذلك شهيق وزفير وصراخ في وجوه بعضهم البعض" فلا يتكلمون بعدها أبدا إن هو إلا زفير وشهيق وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم" [(١)].

ثم ذكرهم الله تعالى ببعض أحوالهم في الدنيا زيادة في إحساسهم بالحسرة على تفويتهم الفرصة التي كانت في أيديهم، وسخريتهم بعبادة الله الصالحين فقال تعالى:" إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ " وهذه الجملة كالعلة للجملة السابقة أو كالجواب للسؤال المقدر الذي أثارته الجملة السابقة ولذا جاءت مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال أو ما يسمى بالاستئناف البياني، وقد جاءت الآية مبدوءة بـ"إن" التي أفاد التوكيد وربطت هذه الجملة بما قبلها، وقد دخلت على ضمير الشأن فكسته جمالًا وحسنًا ولطافة كما قال الشيخ:" ومن خصائصها أنك ترى لضمير الأمر الشأن معها من الحسن واللطف بل تراه لا يصلح حيث صلح إلا بها"[(٢)].

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٥٧/٥، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٢) دلائل الإعجاز ٣١٧.

هذا " والإخبار في قوله: إنه كان فريق من عبادي إلى قوله: سخريا مستعمل في كون المتكلم عالما بمضمون الخبر بقرينة أن المخاطب يعلم أحوال نفسه. وتأكيد الخبر ب (إن) وضمير الشأن للتعجيل بإرهابهم"(١).

والتعبير بـ" فريق" يشير إلى تميز هذه الثلة المؤمنة عن غيرهم من أولئك الذين اتخذوهم سخريًا ولم ينتفعوا بما جاءهم من الآيات، فأصل كلمة " فرق" كما جاء في معجم المقاييس:" الفاء والراء والقاف أصيل صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين"(٢)، ومن بيانية، وهذا الفريق الذي يحكي الله تعالى عنه حاز قمة الشرف والتكريم حين أضافه الله تعالى إليه، فقال:" فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي" والتعبير بالمضارع في " يقولون" يصف حالهم ويبين أنهم كانوا مستمرين في الضراعة متجددين في طلب المغفرة والرحمة من الله تعالى، عاملين بمقتضى اسم الربوبية من توحيده جل وعلا وإفراده بالقصد والعبادة. وإسناد الفعل إلى واو الجماعة يشير إلى أن هذا كان حالهم جميعًا .

وجملة "رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ" مقول القول، وشتان بين قول هذه الفرقة المؤمنة:" ربنا" وبين قول غيرهم:" ربنا أخرجنا منها" فالثلة المؤمنة قدموا شيئًا يتضرعون به أمام الله تعالى وليس هناك أفضل من الإيمان فجعلوه بين يدي طلبهم وتضرعوا طالبين من الله تعالى المغفرة والرحمة، فالأمر في " اغفر، وارحم" خرج إلى الطلب والتضرع ثم ذيلوا كلامهم بـ" وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ" جملة حالية سيقت في ثوب الجملة الاسمية لتدل على دوام واستمرار وتأكيد رحمة الله تعالى، فالله تعالى خير الراحمين ولم يزل كذلك، أما هؤلاء العصاة فلم يقدموا شيئًا يستحقون به الخروج من النار فكيف يخرجون؟!

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٩/١٨.

(٢) مقاييس اللغة مادة: فرق.

ثم ذَكَّرَهم الله تعالى بكيفية تعاملهم مع المؤمنين فقال تعالى:" فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ" التعبير بالفاء يبين سرعة هؤلاء الكافرين في الباطل وعدم قبولهم للحق واستهزائهم بالمؤمنين وهذا شأن الكافرين عبر العصور يرفضون الحق دون أن ينظروا فيه ولو فعلوا لاتبعوه قطعًا، إنما يرفضونه لأجل من يدعون إليه كبرًا منهم وتجبرًا، فتارة يسخرون من أهل الحق، وتارة يستكثرون عليهم فضل الله تعالى عليهم، وتارة يتعللون بأنهم بشر مثلهم فلم يطلبوا برهانًا على صدق دعواهم" وإنما رفضوا الدعوى وكان رفضهم مبنيا على مسلمة خاطئة هي رفض بشرية الرسول، وهكذا عقلية الجاهلية في كل زمان تعتقد مسلمات، وتحاول ترسيخها في عقول الجماعات من غير أن تأذن لنور البصيرة، والحجة بمناقشتها وتمحيصها، ثم تجعل هذه المسلمات أساس حوارها في بث الجاهلية، وتضليل الجماعات"[١].

وقوله:" سِخْرِيًّا" قال الخليل: " سخر: سَخِرَ منه وبه، أي: استهزأ. والسُّخْرِيَّةُ: مصدر في المعنيين جميعا، وهو السُّخْرِيُّ أيضا ويكون نعتا كقولك: هم لك سِخْرِيٌّ وسُخْرِيّةٌ، مذكر ومؤنث [من ذكر قال: سِخْرِيّ، ومن أنث قال: سُخْرِيّة] . والسُّخَرَة: الضُّحَكَةُ، وأما السُّخْرةُ فما تَسَخَّرْتَ من خادم ودابة بلا أجر ولا ثمن. تقول: هم لك سُخْرَةً وسُخْرِيّاً. قال الله جل وعز: فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي ، أي: سُخْرِيّة، من تَسَخُّرِ الخول وما سواه، وسخريا في الاستهزاء. سَخَرَتِ السفن: أطاعت وطاب لها السير "[٢].

وهذا " وقرأ نافع وأهل المدينة وأهل الكوفة عن عاصم بضم السين في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالكسر هاهنا .قال الخليل وسيبويه هما لغتان كدري ودري. وقال الكسائي والفراء الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول، والضم بمعنى السخرية. قال مقاتل:

---

(١) خصائص التراكيب صـ١١٨، أ. د/ محمد محمد أبو موسى، الطبعة الثامنة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

(٢) معجم العين مادة: سخر.

إن رؤساء قريش مثل أبي جهل وعتبة وأبي بن خلف كانوا يستهزئون بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويضحكون بالفقراء منهم مثل بلال وخباب وعمار وصهيب، والمعنى اتخذتموهم هزوا حتى أنسوكم بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ذكري"(١). إذن فأهل الشرك قد جمعوا على الفئة المؤمنة لونين من العذاب أولهما : أنهم سخروا منهم وقللوا من شأنهم، وثانيهما: أنهم سخَّروهم في خدمتهم واستعبدوهم كما حدث مع سيدنا خباب وصهيب وبلال.

وقوله تعالى:" **حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِى**" حتى ابتدائية ومعنى (حتى) الابتدائية معنى فاء السببية فهي استعارة تبعية. شبه التسبب القوي بالغاية فاستعملت فيه (حتى)" (٢).

ونسي بمعنى ترك، وهُوَ مِن إطْلاقِ المَلْزومِ وإرادَة الَّلازِم لأنَّه مِن {نَسِيَ الشيءَ تَرَكَه بِلا عكْسٍ. قُلْت: قالَ الرَّاغبُ: النِّسْيانُ: تَرْكُ الإنْسانِ ضَبْط مَا اسْتُوْدِعَ إمَّا لضَعْفِ قَلْبِه وإمَّا عَن غَفْلةٍ أَو عَن قَصْدٍ حَتَّى يَنْحذفَ عَن القَلْبِ ذِكْرُه، انتَهَى } والنِّسْيانُ عنْدَ الأطبَّاء: نُقْصانٌ أَو بُطْلان لقُوّةِ الذَّكاءِ" (٣).

وإسناد القيام بالنسيان للفريق مجاز عقلي علاقته السببية؛ لأنهم لم ينسوهم ذكر الله تعالى على الحقيقة إنما كانوا سببًا في ذلك، فالمشركون انشغلوا بهذا الاستهزاء والسخرية عن الاتعاظ بما جاء في القرآن الكريم من الآيات والعبر.

ولا مانع من كون " حتى" لانتهاء الغاية والمعنى: إنكن اتخذتم المؤمنين سخريًا وتماديتم في ذلك إلى غاية أو وصلتم لدرجة نسيان ذكر الله تعالى والانتفاع بما جاء في القرآن.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٣/٢٩٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٨/١٢٩.

(٣) تاج العروس مادة: نسي.

أما الذكر " فيطلق على نطق اللسان باسم أو كلام ويطلق على التذكر بالعقل. وقد يخص هذا الثاني بضم الذال وهو هنا مستعمل في صريحه وكنايته، أي مستعمل في لازمه وهو العبادة والطاعة لأن المعنى أنه أنساهم توحيد الله بكلمة الشهادة والتوجه إليه بالعبادة"(١).

وإضافة الذكر إلى ياء المتكلم التي تعود على الله جل ذكره فيها تشريف وتعظيم لهذا الذكر الحكيم . وهذا الآية تقطع عليهم رجاءهم وضراعتهم لأنهم تركوا الاتعاظ بعدما عاينوا آيات الله تترًا تمر عليهم الآية تلو الآية فتركوها ونسوا أخذ العبرة منها ، ومعلوم أن النسيان لا يكون إلا بعد علم، والإنسان سمي بذلك لأنه ينسى ما علمه"(٢).

وقوله تعالى:" وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ " العطف بين هذه الجملة وما قبلها لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى إلى جانب اتفاقهما في الغرض العام وهو بيان حال هؤلاء الكافرين من الفريق المؤمن ، وتقديم الجار والمجرور" منهم" أفاد الاختصاص، وهو اختصاص هذا الفريق المؤمن بالسخرية منه والضحك منه، أما التعبير بالمضارع في" تضحكون" فإنه صور حالهم جميعا، وأفاد تجددهم في السخرية من المؤمنين والضحك منهم ، وعدم الالتفات يومًا إلى آيات الله الظاهرة وحججه القاهرة التي تدلهم عليه سبحانه.

ثم تأتي نهاية هذا الحوار بمزيد من الأسى والعذاب على أولئك الكافرين ومزيد من الكرامة على الثلة المؤمنة بربها، فقال تعالى: إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ" سيقت هذه الجملة في ثوب الجملة الاسمية لتدل على دوام فضل الله تعالى

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٥٥.

(٢) الفروق اللغوية صـ٨٠. لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

على المؤمنين وعدم تحول هذا النعيم عنهم، فهم في فوز دائم أبد الآباد، كما سيقت الجملة في ثوب التوكيد لتأكيد ما هم في من النعيم المقيم، وقد نسب الله تعالى الجزاء لنفسه فيا لكرامة من جزاه الله تعالى ويا سعد من لقي الله وهو عليه راض، والتعبير بالفعل الماض" جزى" للدلالة على تحقق وعد الله تعالى لعباده المؤمنين بالفوز في الآخرة.

وقوله تعالى:" أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ" قرأ حمزة والكسائي إنهم بالكسر والباقون بالفتح فالكسر استئناف أي قد فازوا حيث صبروا فجوزوا بصبرهم أحسن الجزاء، والفتح على أنه في موضع المفعول الثاني من جزيت، ويجوز أن يكون نصبا بإضمار الخافض أي جزيتهم الجزاء الوافر لأنهم هم الفائزون"(١).

والمراد بـ" اليوم" هو يوم القيامة، وكثيرًا ما يلفت القرآن أنظارنا إليه، فهو اليوم الذي نرجع فيه إلى الله تعالى، و هو يوم التفرقة بين المؤمنين والكافرين، وهو اليوم الذي لا تؤخذ فيه فدية، وهو اليوم الذي يضحك فيه الذين آمنوا من الكفار.

والجملة على رأي من قال بالاستئناف فيها مزيد من التنبيه ولفت الذهن؛ لأن هذه النهاية هي المصير المأمول المرتجَى من الله تعالى، ولذلك فهي أحق أن يبدأ بها مقطع جديد من مقاطع الكلام غاية في الأهمية، وعلى الفتح تكون الجملة تفسيرية لما قبلها، وقد جاءت هذه الجملة في ثوب الجملة الاسمية لتدل على دوام فوزهم وعدم انقطاعه عنهم، وأُكدت بـ" إن" وأسلوب القصر عن طريق توسط ضمير الفصل بين اسم إن وخبرها لتأكيد هذا الفوز وتحقيقه ، كما جاء الخبر على صيغة اسم الفاعل الدال على الثبوت والدوام ليتعانق هو الآخر مع مجيء الجملة من بدايتها في ثوب الجملة الاسمية، فكانت كالترشيح لما سبق.

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٣/٢٩٨.

هذا والجملة تعكس من طرف آخر مزيدًا من الحسرة والقهر والخزي لأولئك الساخرين من المؤمنين، فاليوم يسامون سوء العذاب بسبب صنيعهم ، نسأل الله السلام وحسن المتاب.

وقفة بين سياقات طلبهم الخروج من النار والجواب عليهم

في سورة غافر طلب أهل النار الخروج منها ولم يذكر في المشهد الحواري نص جواب الله تعالى عليهم لأنهم طلبوا الخروج من النار بأي وسيلة وطريقة فكان الجواب: لا خروج لكم ، ثم تأتي الآية التي تلي طلبهم مفصولة عن الآية السابقة على طريقة الاستئناف البياني لتعلل لهم عدم الخروج من النار وفي عدم الإفصاح عن الجواب إشارة إلى أنهم لا يستحقون الرد عليهم ، ولا يستحقون الخروج من النار وإنما يجازون بما كسبته أيديهم وهذا ما ورد صراحة بعد ذلك في قوله تعالى:" الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" .

أما ما ورد في سورة فاطر فإن الرد على طلبهم جاء بإقرارهم بالتعمير وعدم التذكر بنعم الله الكثيرة، وذلك لأن هذا الحوار جاء بعد تعداد نعم الله تعالى عليهم من ذكر إنزال الماء وإخراج الثمرات ، وخلق الجبال واختلاف أشكالها ثم ذكر نعمة القرآن ، وكل هذه النعم تستدعي الوقوف أمامها والتفكر فيها وأخذ التذكرة والعبرة منها لكنَّ ذلك لم يحدث ، فعندما طلبوا الخروج من النار قررهم الله تعالى بأنه عمرهم في الدنيا وساق لهم من النعم ما يستوجب التذكر فلم يفعلوا فاستحقوا ما هم فيه من العذاب، فلا مجير ولا نصير، وهذا في قمة التناسب بين نظم السورة والجواب على طلبهم.

أما طلبهم الوارد في سورة المؤمنون فإن الحوار جاء بعد ذكر مشهد الميزان وفلاح من ثقلت موازينهم وخسارة من خفت موازينهم ودخول أهل النار في أماكنهم المعدَّة لهم فناسب هذا الختام أن يبقوا فيها أبد الآباد خاسئين لا يتكلمون لأنه قد انتهى كل شيء لذا قيل: فلا يتكلمون بعدها إن هو إلا زفير وشهيق، وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم"

المبحث الثاني:

حوار أهل النار في سياق طلب الرجوع من النار وطلب التأخير إلى أجل قريب.

المطلب الأول: حوار أهل النار في سياق طلب الرجوع إلى الدنيا

قال الله تعالى:" وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"(السجدة: ١٢-١٤)

معنى الآيات ومناسبتها لما قبلها:

في هذه الآيات المباركات يصور الله تعالى حال هؤلاء المجرمين وقد نكسوا رؤوسهم عند ربهم خجلًا وحياءً وذلًّا وانكسارًا واعترافًا بصدق ووقوع ما كانوا ينكرونه من أمر البعث والرجوع إلى الله العزيز القهار، فقد كانوا يقولون:" أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ" فأجابهم ربنا جل وعلا:" قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ"(السجدة :١١)، ولما عاينوا ما كانوا ينكرونه نكَّسوا رؤوسهم وراحوا يتضرعون يطلبون الرجوع إلى الدنيا ليدركوا ما فاتهم من العمل الصالح، لكنهم كالعادة أُجيبوا بما يخيِّبُ أملهم ويقضي على ضراعتهم التي لا تنفعهم آنذاك بشيء بل ويُذَاقوا ألوانًا شتى وصنوفًا متعددة من ألوان العذاب الخالد عليهم.

التحليل البلاغي:

بدأت الآيات المباركات بدخول أداة الشرط " لو" على الفعل المضارع على خلاف الأصل فإنها تدخل على الفعل الماضي وذلك لأن ما وعد الله به وأخبر في

حكم الأمر المقطوع برقوعه الذي لا سبيل إلى التبديل فيه ولا لدفع حدوثه، و التعبير بالفعل المضارع" ترى" يصور حال هؤلاء المجرمين وهم في غاية الذلة والانكسار في معرض المحاسبة والجزاء أمام الله تعالى، والتعبير بـ" لو" التي هي حرف امتناع لامتناع فيه صيانة ومراعاة لحال النبي الكريم- صلى الله عليه وسلم- لأنه لن يرى مثل هذه المواقف كي لا يحزن قلبه على من دخل النار من أمته ، وهو الحريص عليها أشد الحرص حتى عوتب في ذلك فقيل له:" **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ**"(الأنعام: ٣٦). وحذف المسند إليه هنا لدلالة السياق والمقام عليه، فالخطاب للنبي الكريم- صلى الله عليه وسلم-، كما أن إيثار التعبير بالرؤية فيه دلالة على أنه ينبغي على المؤمن أن يتعامل مع ما أخبر عنه ربنا جل وعلا من أمور الغيب بالتصديق والجزم كأنه يراها بعينه.

وقوله تعالى:" **إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ**" إذ ظرف لما مضى، من الزمان، وعُبر بها لما يستقبل من الزمان " لأن الأمور المستقبلة لما كانت في إخبار الله، تعالى متيقنة مقطوعًا بها عبر عنها بلفظ الماضي(١).

وجاء لفظ المسند إليه" المجرمون" معرفًا بلام الجنس ليشمل كل مجرم على مر العصور والدهور، ولم تحدد الآية الكريمة عملًا معينًا يتسم به فاعله بالإجرام لتتسع هذه الدائرة، ولتكبر دائرة التحري عن العمل قبل فعله . أما لفظ المسند " ناكسوا" فقد جاء على صورة اسم الفاعل ليدل على دوام ذلّهم وإهانتهم، فلا يرفعون رؤوسهم أبدًا إنما هي منكوسة على الدوام ، والأسلوب كناية عن الذل والهزيمة والقهر، ومن

(١) الجنى الداني في حروف المعاني صـ١٨٨، لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري (ت: ٧٤٩هـ)، ت: د فخر الدين قباوة الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م بتصرف.

مميزات التعبير بالكناية أنها تسوق الشيء مدعومًا بالدليل فلا تُرفع هامةٌ بعد ذلك تناقش هذا الشيء أو تنكره.

هذا وأصل كلمة نكس " قلب الشيء. منه النكس: قلبك شيئا على رأسه. والولاد المنكوس: أن يخرج رجلاه قبل رأسه. والنكس: السهم الذي ينكسر فوقه، فيجعل أعلاه أسفله. ويقال للمائق: إنه لنكس، تشبيها بذلك. والمنكس من الخيل: الذي إذا جرى لم يسم برأسه ولا هاديه من ضعفه"(١). إذن فالأمر يدور حول معنيين أساسيين أولهما: قلب الشيء على رأسه وهؤلاء قُلِبت أحوالهم فلم تعد لهم رؤوس مرفوعة كما كانوا في الدنيا، ولا عزة لهم في الآخرة كما كانوا في الدنيا. وثانيهما: الضعف والهزال فلم تَعُد لهم قوة ولا بطش ولا أنصار يدافعون عنهم ويعلوا من شأنهم نفاقًا لهم بل زالت عنهم قوتهم الذاتية والمكتسبة، فهم يعيشون في الوهن والذل بما كسبت أيديهم.

والعندية في قوله تعالى:" عِنْدَ رَبِّهِمْ" تحمل كل أنواع التبكيت لهم لأنهم لم يكونوا لائقين في عبوديتهم لله تعالى وهو الذي رباهم وأولاهم بصنوف النعم، فكيف يقابلون هذه النعم بالإجرام وتكذيب الرسل؟!

"رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا" بحذف أداة النداء للمبادرة إلى المطلوب، والجملة اعتراف بالذنب والتقصير ، وأنهم كانوا يعيشون عميًا عن رؤية آيات الله تعالى وصمًّا عن سماع الآيات، الآن وقد ظهر لنا خطأ ما كنا فيه فـ" أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا"، وإيثار التعبير بالماضي أفاد تحقق هذا الإبصار والسماع ، وهما كناية عن تحقق وظهور ما كانوا ينكرونه واستبانته أمامهم، وهذه الجملة بمثابة التقدمة لطلبهم، والذي هو مطلب عام لدى جميع أهل النار، وقولهم : " أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا" مقول لقول محذوف، وقد حذف مفعولهما للعلم به ودلالة المقام عليه، وللمبادرة إلى المطلوب ولضيق المقام الذي لا

(١) مقاييس اللغة مادة: نكس.

يستدعي بسط الكلام ، إنما هو خطاب المعذَّب في النار الذي يرجو الخلاص مما هو فيه من العذاب والمذلة والمهانة .

"فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا" اقتران الفاء بالفعل الأمر فيه دليل على ضيق هذا المقام ويعكس رغبتهم في سرعة الرجوع إلى الدنيا والخروج من النار، وقد خرج التعبير بالفعل الأمر إلى معنى التضرع والدعاء لصدوره من الأدنى إلى الأعلى، والفعل " نعمل" مجزوم في جواب الطلب، ومجيئه في صورة المضارع فيه تصوير لحالهم – على حد زعمهم– وهم يعملون الصالحات على الدوام لا يتركونها أبدًا، وإنما يتجددون في فعلها، وقيد العمل بالصالح لأنه هو المعتد به يوم القيامة وهو الذي يرقى به صاحبه ويُبَيِّض وجهه عند خالقه ويعصمه من دخول النار.

"إِنَّا مُوقِنُونَ" جملة اسمية تعليلية لطلبهم السابق، وقد فصل بينها وبين ما قبلها لكمال الاتصال، فهي بمنزلة التوكيد المعنوي لقولهم:" أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا"، وسيقت في ثوب الجملة الاسمية لدلالتها على الثبوت والدوام، وكذلك جاء لفظ المسند " موقنون" على صورة اسم الفاعل لدلالته على الثبوت والدوام وهذا يثبت يقينهم الدائم الذي لا ينقطع ولا يزول عنهم، وهذا تعليل جيد ووصف عال لحصول اليقين عندهم لكنهم جاءوا موقنين في يوم لا ينفعهم يقينهم بشيء.

هذا وحذف جواب " لو" لتذهب النفس فيه كل مذهب، فيحصل لها من الرهبة ما يجعلها تفر من عذاب الله ، ومن الرغبة ما يجعلها تلجأ إلى الله تعالى وتؤمن به، ولا تحدث مثل هذه الرغبة ولا الرهبة إذا عُيِّنَ المحذوف وظهر وتقدير الجواب: لرأيت أمرًا عظيمًا.

وقوله تعالى:" **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**" تقرر هذه الآية أنهم استحقوا هذا العذاب بما كسبته أيديهم، فالله تعالى يخبرنا أنه لو شاء لجعل الناس كلهم مؤمنين كما قال في آية أخرى:" **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا**" (يونس:٩٩)،

لكن الله تعالى لم يرد أن يجبر أحدًا على الإيمان، وترك للناس حرية الاختيار بعدما بَيَّن لهم طريق الجنة وطريق النار لتجني كلُّ نفس جريرة اختيارها .

هذا وقد بدأت الآية الكريمة بواو الاستئناف، فهذا كلام جديد جدير أن يبدأ به ويكون صدرًا للكلام، ثم قُيِّد الفعل بـ"لو" التي هي للامتناع لأن الله تعالى لم يشأ ذلك، ولما كان الله تعالى هو وحده المتصرف في هذا الأمر لا يُنازَعُ في ذلك مطلقًا جاء الفعل مقرونًا بـ" نا" الدالة على التعظيم ليحاكي مقام العظمة الوارد فيه. ثم جاء الجواب مقرونًا باللام لتأكيد هذا الإتيان، كما جاءت صياغة الفعل من الإتيان الدال على السهولة واليسر [1] ليعكس سهولة ويسر هذا الأمر على الله القدير، ولازالت جوانب عظمة الله تعالى ترفرف على هذا الموقف ولذا اقترن الفعل بـ" نا" الدالة على هذه العظمة.

ثم كان التعبير بلفظ" كل" الذي أفاد العموم والشمول لكل الأنفس التي جاءت من صلب آدم – عليه السلام-، وفيه دلالة على طلاقة قدرة الله تعالى وأن هداية كل هذه الأنفس كهداية نفس واحدة ، ثم جاء لفظ "هداها" عائدًا على النفس لأنها المنتفعة بهذا الهدى وقد ورد في الحديث القدسي : " يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُم وإِنْسَكُم وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْب رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا"[2].

---

(١) ينظر: الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم صـ٢٢ أ. د/ محمود موسى حمدان- رحمة الله تعالى عليه- الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، برقم: (٢٥٧٧).

ومفعول المشيئة محذوف في الآية الكريمة وتقديره: ولو شئنا إتيان كل نفس هداها لآتيناها، وفي الحذف إعمال للفكر وتحريك للذهن يستوجب تقريرًا وتمكينًا للمعنى المراد.

"وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي" جملة استدراكية، والتعبير بالفعل الماضي في " حَقَّ" أفاد تحقق وقوع هذا القول، وجاء المسند إليه" الْقَوْل" معرفًا بأل التي هي للعهد الخارجي العلمي لأنه لم يتقدم لمدخولها ذكر صريح ولا كنائي، وأفاد هذا التعريف أن المراد قول معهود معين وهو قوله تعالى " لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" وهو من الإيضاح بعد إبهام زاد في تقرير المعنى وتمكينه من نفس السامع، وذلك لأنه إذا قيل: " وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي" ترقبت النفس لمعرفة هذا القول فإذا تمت الجملة وظهر ما طلبته النفس ورغبت في معرفته وقع المعنى منها موقعًا مكينًا لأنها نالته بعد ترقب وشغف ورغبة في معرفته.

وفي قوله:" مِنِّي" من ابتدائية دخلت على ياء المتكلم دون " نا" العظمة ؛ لأن الله تعالى هو وحده صاحب هذا القول، وهو وحده القادر على إمضائه، وإضافة القول إلى ما يرجع إلى الله تعالى أعطى هذا القول قدسية من قدسية قائله وعظمة من عظمة قائله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى:" " لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" اللام الواقعة في"" لَأَمْلَأَنَّ " واقعة في جواب قسم محذوف تقديره: وعزتي، والجملة كلها سيقت في ثوب التوكيد سواء كان بالقَسَم أو اقتران المضارع بنون التوكيد لأن الجملة واردة في مقام الوعد والوعيد ، وهذا المقام من المقامات التي تساق مؤكدة ليقطع الطرق على المشككين والمنكرين، كما جاء التعبير بالفعل المضارع ليفيد استحضار صورة هذا المليء وجعلها ماثلة أمام أعين هؤلاء المجرمين فيزدادون مهابة وهلعًا وخوفًا، وطُوِيَ ذكر المسند إليه للعلم به فهو مما يختص به الله تعالى.

و" جهنم" اسم من أسماء النار التي يعذ الله فيها من استحق العذاب من عباده، وسميت بذلك لبُعْدِ قعرها، لأن" الجهنام هو: القعر البعيد وَبِئْرٌ جَهَنَّمٌ وجِهِنَّامٌ، بِكَسْرِ الْجِيمِ وَالْهَاءِ: بَعِيدَةُ القَعْر، وَبِهِ سُمِّيَتْ جَهَنَّم لبُعْدِ قَعْرِها"(١).

"مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" من بيانية لأولئك الذين يستحقون دخول النار، والكلام هنا مبني على حذف مضاف ، وتقديره: لأملأن جهنم من كفار الجنة والإنس، فحذف المضاف للعلم به لأنه معلوم أنه لن يدخل النار أحد من المؤمنين كما قال النبي الكريم– صلى الله عليه وسلم– :" لَا يَدْخُلُ النَّارَ رَجُلٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ"(٢).

وتقديم ذكر الجنة على الإنس فيه بسط لقدرة الله تعالى وقيوميته على خلقه لأن الناس يهابون الجن ويعتقدون أن لهم قوة ليست عندهم من الإنس، ومعظم الآيات التي اجتمع فيها ذكر الجن والإنس قدمت ذكر الجن على الإنس، لتعكس طلاقة قدرة الله تعالى، كقوله تعالى:" **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** (الأعراف:١٧٩). كل هذه الآيات(٣) تبسط قدرة الله تعالى على الجميع القوي قبل الضعيف، كما أن في تقديم ذكر الجن على الإنس إشارة إلى أنهم السبب الأقوى في ضلال بني الإنس كما أخبر ربنا تعالى في قوله:" **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ**" (فصلت: ٢٩).

---

(١) لسان العرب مادة: جهم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسند سيدنا عبد الله بن مسعود برقم (٣٩٤٧).

(٣) كذلك ينظر سورة" الأعراف: ٣٨، النمل:١٧، الأحقاف:١٨، الرحمن:٣٣، الناس: ٥"

أما ما ورد من تقديم ذكر الإنس على الجن ففي سورتي الإسراء والجن، قال تعالى:" **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**" (الإسراء:٨٨)؛ لأنه كان هناك ادعاء من الإنس بإمكانية أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولذا قُدِّمُوا في الذكر رفعًا لراية التحدي الذي سيظهر عجزهم ويبسط قدرة الله تعالى القاهرة عليهم ، أما آية سورة الجن:" **وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا** " (الجن: ٥)لأن الإنس كذَّبوا وبالغوا في كذبهم على الله تعالى مع إرسال لهم العديد من الرسل من أبناء جلدتهم تدعوهم إليه سبحانه، وتدلهم عليه ومع ذلك لم ينتفعوا بشيء بل بالغوا في الكذب على خالقهم جل وعلا، ففي تقديمهم تسجيل عليهم وتبكيت لهم. ثم جاء التأكيد بعد ذلك بكلمة" أجمعين" زيادة في تأكيد شمول قدرة الله تعالى لجميع خلقه.

هذا وتعريف " الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ" بأل يفيد العهد لأن الحديث عن شيء معهود وهو عصاة الجن والإنس. والآية فيها تكريم لبني البشر وبني الجن حين بَيَّنَ الله تعالى لهم طريق الهدى وطريق الضلال، وأرسل لهم الرسل وأودع لهم عقولًا تتأمل وتفكر وتتحمل عاقبة اختيارها، فلم يجبرها على الطاعة كغيرهم من المخلوقات.

وقوله تعالى:" فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا" الجملة واقعة في جواب الطلب الموجود في "فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا" والفاء الداخلة على الفعل " ذوقوا" الدالة على السرعة تقرع مسامعهم بمصيرهم وتلزمهم سرعة التوقف عن تضرعهم الوقتي واعتذار المعروض في يوم لا ينفع فيه ندم ولا اعتذار، وتفيد" ترتيب الأمر بالذوق على ما يعرب عنه ما قيل من نفي الرجع إلى الدنيا أو على قوله تعالى: وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي إلخ، ولعل هذا أسرع تبادرا، وجعلها بعضهم واقعة في جواب شرط مقدر أي إذا يئستم من الرجوع أو إذا حق القول فذوقوا، وجوز كونها تفصيلية والأمر للتهديد والتوبيخ"[١]،

(١) روح المعاني ١٢٧/١١.

والتعبير بالفعل " ذق" استعارة تبعية، حيث شُبِّهَ دخول العذاب ومعاينتهم لأهواله بالذوق بجامع المعاينة وشدة التأثر، ثم اشتق من الذوق الفعل " ذق" على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل، وحذف مفعول الفعل " ذوقوا" لتذهب النفس في تخيله كل مذهب، وإسناد الفعل إلى واو الجماعة يجعلهم مشتركين – جميعًا– في إلقاء اللوم عليهم وفي نفس المصير.

والباء في " بِمَا" تفيد السببية وقد دخلت على ما المصدرية فالجملة بعدها في محل جر بالباء، أما الفعل" نسي" فالنون والسين والياء أصلان صحيحان: يدل أحدهما على إغفال الشيء، والثاني على ترك شيء"[١]. وهؤلاء المجرمون نسوا هذا اليوم وتركوا العمل له، ومجيء الفعل على صورة الماضي أفاد تحقق ذلك النسيان وهذا الترك منهم .

واللقاء في " لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا" حقيقته العثور على ذات، فمنه لقاء الرجل غيره وتجيء منه الملاقاة، ومنه: لقاء المرء ضالة أو نحوها. وقد جاء منه: شيء لقى، أي مطروح. ولقاء اليوم في هذه الآية مجاز في حلول اليوم ووجوده على غير ترقب كأنه عثر عليه"[٢].

وإضافة اليوم إلى ضمير المخاطبين في " يَوْمِكُمْ" تهكم بهم وتقريع لهم ؛ لأنهم كانوا ينكرونه فها قد جاءكم اليوم الذي كنتم تتكرون وقوعه، فلما تحققوه جعل كأنه أشد اختصاصا بهم على طريقة الاستعارة التهكمية [٣].

---

(١) مقاييس اللغة مادة: نسي.

(٢) التحرير والتنوير ٢٢٥/٢١.

(٣) السابق ٢٢٥/٢١ بتصرف.

والتعبير باسم الإشارة" هَذَا" لإحضار ذلك اليوم في أذهانهم وجعله ماثلًا أمام أعينهم إلى جانب ما اسم الإشارة من الدلالة على عظمة ذلك اليوم وشدة هوله ووقعه على هؤلاء الذين نسوه وتركوا العمل له.

وقوله تعالى:" إِنَّا نَسِينَاكُمْ " جملة استئنافية سيقت في ثوب الجملة الاسمية لتدل على دوام نسيان الله لهم، جاء فيها المسند إليه معرفًا بضمير العظمة فالمقام كله رفعة لله وعظمة له ، فإذا ترك الله أحدًا فهل هناك مَن يجبر هذا الترك؟ والتعبير بالنسيان في حق الله تعالى من قبيل المشاكلة، وهي: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته لفظًا أو تقديرًا(١)، فالنسيان بمعناه الحقيقي محال على الله تعالى، وإنما المراد من الترك ومعاملتهم بمقتضى عملهم.

قال العلامة الألوسي:" والمراد بنسيانهم ذلك تركهم التفكر فيه والتزود له كما أشرنا إليه وهو بهذا المعنى اختياري يوبخ عليه ولا يكاد يصح إرادة المعنى الحقيقي وإن صح التوبيخ عليه باعتبار تعمد سببه من الانهماك في اتباع الشهوات، ومثله في كونه مجازا النسيان في قوله تعالى: إِنَّا نَسِيناكُمْ أي تركناكم في العذاب ترك المنسي بالمرة وجعل بعضهم هذا من باب المشاكلة ولم يعتبر كون الأول مجازا مانعا منها قيل: والقرينة على قصد المشاكلة فيه أنه قصد جزاؤهم من جنس العمل فهو على حد وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها (الشورى: ٤٠) (٢).

" وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ" العطف بين الجملتين للتوسط بين الكمالين فهما متفقتان في الخبرية لفظًا ومعنى، ومتفقتان في الغرض العذاب فكلتا الجملتين تبين مصير هؤلاء المجرمين الذين نسوا اليوم الآخر وتركوا العمل له، وتكرار التعبير بالذوق يدل على تأكيد حصول هذا العذاب لهم، وذكر المفعول هنا ووصفه بالخلد يقرع أسماعهم

---

(١) الإيضاح للخطيب القزويني ٢٦/٦.

(٢) روح المعاني ١٢٨/١١.

صراحة بالمصير المحتوم ويؤكد استحقاقهم له، وفيه تيئيس لهم ودفع لأي خاطرة قد تحدثهم بالخروج من هذا العذاب،

قال العلامة أبو السعود:" وتعيين المفعول المطوي للذوق والإشعار بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النسيان بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصي التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا وعدم نظم الكل في سلك واحد للتنبيه على استقلال كل منها في استيجاب العذاب وفي إبهام المذوق أولا وبيانه ثانيا بتكرير الأمر وتوسيط الاستئناف المنبئ عن كمال السخط بينهما من الدلالة على غاية التشديد في الانتقام منهم ما لا يخفى"[1] نسأل الله السلامة.

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" جملة تعليلية تعكس مدى عدل الله تعالى معهم، فما هم فيه بسبب ما ارتكبته أيديهم لم يتجنَّ عليهم أحد، والتعليل هنا يستلزم أمرين:" وهما الأفعال السيئة من التكذيب والمعاصي، وترك التفكر في أمر الآخرة دلالة على أن كلا منهما يقتضي ذلك[2].

(١) تفسير أبي السعود ٨٤/٧.

(٢) التفسير المنير ١٩٦/٢١، د : وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة : الثانية ١٤١٨هـ.

المطلب الثاني:

حـوار أهل النار فـي سـياق طلب التأخـير والإمهال

قال تعالى: " وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ" (إبراهيم ٤٢-٤٧).

المعنى العام للآيات ومناسبتها لما قبلها:

بعدما طمأن الله تعالى نبيه ومن معهم من الثلة المؤمنة بأنه سبحانه ليس غافلًا عما يعمل الظالمون، وأنه تعالى سيتولى محاسبتهم في يوم شديد هوله، تشخص فيه الأبصار جاءت هذه الآيات ملفوفة بالإنذار والتهديد، فهي بمثابة بلاغ شديد اللهجة يدل على صعوبة القادم بالنسبة لأولئك الذين اتخذوا الظلم منهجًا، فجنوا على أنفسهم وظلموا غيرهم فسيق إليهم هذا البلاغ محملًا بعاقبة الظالمين السابقين، وكيف أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وكيف أنهم تمنوا العودة إلى دار الدنيا يلبون دعوة الله تعالى، ويجيبون الرسل الكرام إلى ما كانوا يدعونهم إليه، كما سيق لهم ما ينتظرهم من بالغ العذاب وذلك حين يسربلون من القطران وتغشى وجوههم النار، فإذا ما كانت عندهم عقول تدرك وتفكر وتتذكر سينفعهم هذا الإنذار ويرتدعون عما هم فيه من الظلم والشرك، والآيات فيها – أيضًا– تسلية للمظلومين وذلك حين يعلمون أن الله العلي سيأخذ للضعيف من القوي .

التحليل البلاغي:

قوله تعالى:" **وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ" الجملة معطوفة على قوله تعالى:" " وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ"** وقد بدئت بفعل الأمر الدال على وجوب الإنذار والبلاغ لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وحُذف المسند إليه لأنه معلوم من سياق الكلام ، فالخطاب للنبي الكريم- صلى الله عليه وسلم- وهذا الإنذار ليس موجهًا إلى فئة بعينها إنما هو موجه للناس كافة ، وحمله على العموم يتناسب مع عموم دعوته- صلى الله عليه وسلم- للخلق أجمعين، فاللام في الناس للعموم، وعليه فالإنذار لكل البشر مؤمنهم وكافرهم ليرتدع أولئك الظالمون المشركون، وليحذر أهل الإيمان أن يقعوا في طائفة المشركين أو يركنوا إليهم، ويجوز أن تكون لام العهد، وعليه فالإنذار لأناس معهودين وهم المشركون؛ لأنهم هم المستحقون للإنذار على الحقيقة .

قال العلامة الألوسي:" المراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر إتيان العذاب وإلى ذلك ذهب أبو حيان وغيره. ونكتة العدول إليه من الإضمار على ما قاله شيخ الإسلام الإشعار بأن المراد بالإنذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للإزعاج والإيذاء فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم، وقال الجبائي: وأبو مسلم: المراد بالناس ما يشمل أولئك الظالمين وغيرهم من المكلفين، والإنذار كما يكون للكفار يكون لغيرهم كما في قوله تعالى: **إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ** [يس: ١١] والإتيان يعم الفريقين من كونهما في الموقف وإن كان لحوقه بالكفار خاصة"(١).

---

(١) روح المعاني ٢٣٣/٧.

وانتصب قوله تعالى:" يَومَ" على أنه مفعول ثان لأنذر، والمراد باليوم" هو يوم القيامة . أو أريد باليوم: يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدّة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى"(١).

وإسناد الإتيان إلى العذاب استعارة مكنية، حيث شبه العذاب بإنسان وحذف المشبه به وذكر بعضًا من لوازمه وهو الإتيان وفي التعبير بالاستعارة تجسيد وتشخيص لهذا العذاب وجعله حيًّا متحركًا لا يقدر على تحمل ظلم أولئك الظالمين فجاءهم لينتقم منهم، ويجوز أن تكون الاستعارة من قبيل الاستعارة التبعية في الفعل يأتي، حيث شبه وقوع العذاب بالإتيان بجامع الحدوث في كلٍّ واشتق من الإتيان الفعل يأتي على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل، و إيثار التعبير بصيغة الإتيان دون المجيء يعكس سهولة هذا الإتيان فما عليه إلا أن يأخذ الإذن من الله سبحانه فقط، كما أن مجيء لفظ العذاب معرفًا "بأل" يفيد أنه العذاب الكامل الذي لا نجاة منه ولا طاقة له ولا صبر عليه.

ولأنه لا طاقة لهم بهذا العذاب الشديد ولا صبر عليه بادروا مسرعين بالاستغاثة والتضرع لله تعالى ليخرجهم مما هم فيه، قال تعالى:" فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا " والعطف بالفاء الدال على السرعة والتعقيب دالٌ على شدة ما نزل بهم، وأنهم لا صبر لهم عليه، والتعبير بالفعل المضارع" يَقُولُ" الدال على التجدد والاستمرار للإشارة إلى إلحاحهم في التضرع والرجاء واستمرارهم فيه، ومجيء المسند إليه" الذين" معرفًا بالموصولية فيه زيادة في تقرير ظلمهم الذي وقع منهم في دار الدنيا ولذا جاء الفعل على صيغة الماضي" ظلموا" وذكر الظلم مرة ثانية وقد ذكر قبل ذلك وكان يمكن أن يؤتى بضميره هذا من باب التسجيل عليهم والإشارة إلى عظمة ما يستحقونه من العذاب.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٢/٥٦٥.

" والظلم على وجوه ظلم على النّفس بوضع الذِّلّة مكان الطاعة، وظلم على القلب بتمكين الخواطر الردية منه، وظلم على الروح بجعلها لمحبة المخلوقين. ويقال من جملة الظالمين الشيطان، فالعبد المؤمن مظلوم من جهته، والحقّ- سبحانه- ينتصف له منه غدا، وذلك إن لم يتّبعه اليوم، ودفعه عن نفسه بالمجاهدة وترك وساوسه"(١).

وإن كان معنى الظلم واسعًا ومتشعبًا ويدخل تحته أناس كثر لكني أرى- والله أعلم- أن المراد به هنا الشرك" كما في قوله تعالى:" **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ**" ويرشح ذلك أن هؤلاء لما طلبوا الخروج من النار لم يُجَب لهم، وقد ذكر العلماء أن العبد المذنب يدخل النار بقدر ذنبه ولا يخلد في النار أبد الآباد إلا المشركون.

"رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ" قولهم:" رَبَّنَا" منادى حذف منه أداة النداء، وحذف الأداة هنا يوحي بأشياء كثيرة منها: ضيق المقام وسرعة المبادرة إلى المطلوب؛ لأنهم عاينوا العذاب وعلموا أنهم لا طاقة لهم به فالأمر يحتاج إلى سرعة التضرع والمناجاة، ومن المعلوم أن في النداء ضراعةً ومسكنة تناسب ما هم فيه من ضعف شديدة.

ثم إنهم آثروا التعبير باسم الربوبية، وهذا قمة في المناسبة من جهة وقمة في التسجيل عليهم من جهة أخرى كما ذكرنا قبل ذلك.

هذا وفعل الأمر" أخرنا" خرج إلى معنى الطلب والدعاء لأنه صادر ممن لا حيلة له فهم غاية في الدنو، ومجيء هذا الطلب في صورة الأمر يعكس شدة الرغبة في وقوعه وكمال العناية به، وإضافة الفعل إلى ضمير الجمع هذا يبين أن هذا التأخير مطلب جماعي لكل ظالم من أول من افترى وظلم إلى آخر من وقع منه ذلك.

---

(١) لطائف الإشارات ٢/٢٥٩، المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة.

وقوله :" إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ" إلى تفيد انتهاء الغاية ، والأجل هو انتهاء المدة والقرب هو الدنو، فكل آمالهم أن يعودوا إلى دار العمل ولو مدة قريبة ليدركوا بعض ما فاتهم ، فأنى لهم ذلك وقد ضيعوا أعمارهم في الشرك والظلم.

وقوله :" **نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ**" مجزوم في جواب الطلب وهما جملتان تصوران سبب تمنيهم العودة إلى الدنيا، والتعبير بالفعل المضارع يعكس- على حد زعمهم- أنهم لن يفارقوا دعوة الله تعالى ولا اتباع رسله الكرام ، هذا إلى جانب ما يفيده التعبير بالمضارع من تصوير مشهدهم وهم يرتعون في الذلة والضعف وهكذا شأن " الأفعال المضارعة في الكلام الحر مرايا تعكس لك الصور والأحداث فلا تسمعها بأذنك فقط، وإنما تراها بعينيك أيضًا"[(١)]، وإضافة الدعوة إلى الضمير العائد عليه سبحانه وتعالى فيه تشريف وتقديس لهذه الدعوة العلوية الواردة من رب البرية جل جلاله، كما أن مجيء " الرسل" مجموعة يبين أنهم وإن اختلفت أزمانهم وتباعدت أيامهم إلا أن منهجهم واحد ودعوتهم واحدة، وهي توحيده جل جلاله وإفراده بالعبادة، قال تعالى:" **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**" (الأنبياء:٢٥).

ويلاحظ أنهم قدموا إجابة الدعوة على اتباع الرسل" لأن المقدم هو الأصل والمؤخر فرع، وهو من عطف الخاص على العام، والنكتة في ذكر الخاص لاستدراك ما بدر منهم من تكذيب الرسل والسخرية منهم"[(٢)].

هذا وجواب طلبهم محذوف دل عليه الحال والمقال، فحيل بينهم وبين ما يشتهون من أمر الرجوع، ثم جاء التعليل لهذا الرفض بتوجيه السؤال لهم، قال تعالى:" أَوَلَمْ

---

(١) قراءة في الأدب القديم صـ ٣٢، تأليف أد: محمد محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ١٨٠/٢.

تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ " وهذا الاستفهام يحمل ألونًا شتى من الأغراض البلاغية ففيه تقرير وتوبيخ وتبكيت لهم، كما أن فيه تنبيهًا لهؤلاء الظالمين أنهم إنما أُخذوا بجريرة أنفسهم ، وفيه – أيضًا– تنبيه وتحذير لغيرهم من الوقوع تحت وطأة ما عوقبوا به بسبب شركهم وظلمهم. والمعنى:" يقال لهم توبيخا وتبكيتا: ألم تؤخروا في الدنيا ولم تكونوا حلفتم إذ ذاك بألسنتكم بطرا وأشرا وسفها وجهلا ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنياوية أو بألسنة الحال ودلالة الأفعال حيث بنيتم مشيدا وأملتم بعيدا ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال إلى هذه الأحوال والأهوال، وفيه إشعار بامتداد زمان التأخير وبعد مداه أو مالكم من زوال وانتقال من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء"(١).

والخطاب في " تكونوا" موجه إلى كل الظالمين ، والتعبير بالقسم يُبين ما كانوا عليه من الكبر والبطر والثقة المزعومة أنهم لن يبعثوا ولن يحاسبوا بين يدي الله تعالى، فالقسم فيه ما في الحلف وزيادة إذ " أن القسم أبلغ من الحلف لأن معنى قولنا أقسم بالله أنه صار ذا قسم بالله، والقسم النصيب والمراد أن الذي أقسم عليه من المال وغيره قد أحرزه ودفع عنه الخصم بالله، والحلف من قولك سيف حليف أي قاطع ماض فإذا قلت حلف بالله فكأنك قلت قطع المخاصمة بالله فالأول أبلغ لأنه يتضمن معنى الآخر مع دفع الخصم ففيه معنيان وقولنا حلف يفيد معنى واحدا وهو قطع المخاصمة فقط وذلك أن من أحرز الشيء باستحقاق في الظاهر فلا خصومة بينه وبين أحد فيه وليس كل من دفع الخصومة في الشيء فقد أحرزه"(٢).

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/٥٦،٥٧.

(٢) معجم الفروق اللغوية صـ٤٢٩. لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

والتقيد بالجار والمجرور في" مِنْ قَبْلُ" فيه دعوة إلى النظر والتذكير بحالتهم السابقة من الشرك والبطر والكبر فَيَحْدُثُ لهم من الهم والغم والتبكيت ما الله به عليم. ثم تأتي جملة " مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ " لتوضح ما أقسموا عليه، فهي من قبيل الإيضاح بعد الإبهام، والمعنى : لا رجوع لنا ولا انتقال من دار إلى دار،" وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله: أَقْسَمْتُمْ ولو حكى لفظ المقسمين لقيل: ما لنا مِنْ زَوالٍ، والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء. وقيل. لا تنتقلون إلى دار أخرى يعنى كفرهم بالبعث"(١).

والزوال هو" الذهاب والاستحالة والاضمحلال ولا يكون إلا بعد استقرار وثبات صحيح أو مقدر"(٢)، ونفي الذهاب والاستحالة يعني إثبات الدوام والاستمرار، وهذا يجعلهم يعيشون في مأمن وثبات، وهذا هو عين الغبن والغرور فحجبهم ذلك عن الانتفاع بدعوة الله تعالى وإتباع الرسل الكرام والتذكر بأحوال السابقين وآثارهم.

وقوله تعالى:" **وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**" عطفت هذه الجملة على قوله:" أقسمتم...." للتوسط بين الكمالين فهما متفقتان في الخبرية لفظًا ومعنى إلى جانب اتفاقهما في الغرض العام، وسكنتم " من السكون الذي هو اللبث، والأصل تعدّيه بفي، كقولك: قرّ في الدار وغنى فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوّأها وأوطنها. ويجوز أن يكون: سكنوا ، من السكون، أي: قرّوا فيها واطمأنوا طيبي النفوس، سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدّثونها بما لقى الأوّلون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم، فيعتبروا ويرتدعوا"(٣).

---

(١) الكشاف ٥٦٥/٢.

(٢) معجم الفروق اللغوية صـ٧٧.

(٣) الكشاف ٥٦٥/٢.

والتعبير بـ " فِي" الدالة على الظرفية دليل على تمكنهم من مساكن من سبقوهم، ورؤيتهم لآثارها، وعلموا كيف أبادهم الله تعالى عندما اتخذوا الظلم منهجًا وعبدوا غيره سبحانه فدمرهم تدميرًا، وطال الدمار بيوتهم التي شيدوها وركنوا إليها مطمئنين غير مبالين بإيمان ولا موت ولا بعث ولا حساب، فهؤلاء سكنوا في مساكن السابقين لكنهم لم ينتفعوا بما حدث لها.

هذا ومع أن وجود هذه المساكن وما فيها من آثار الهلاك كفيل للتذكرة والعبرة إلا أن الله سبحانه أرسل الرسل ليبينوا لهؤلاء المشركين صنيع الله تعالى مع أسلافهم، قال تعالى:" وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ"كل هذه الجمل المعطوف على بعضها من باب التسجيل عليهم والتبكيت لهم، وجاء الفعل " تبيَّن" مضعف العين دالًّا على التكثير ومتناسبًا مع هذه الصور الكثيرة الواضحة أمامهم في شأن الشرك وأهله، فما سَكَنُهُم في مساكين السابقين إلا نوع من البيان، وكذلك إخبار الرسل لهم عن عاقبة الظالمين المشركين نوع من البيان، وضرب الأمثال وبيان ما كانوا عليه من مكر تزول منه الجبال كل هذا من البيان، فمجيء الفعل على صيغة التضعيف دالٌ على ذلك ومشيرٌ إلى الكثرة.

" فإن قيل: ولماذا قيل: وتبين لكم كيف فعلنا بهم ولم يكن القوم يقرون بأنه تعالى أهلكهم لأجل تكذيبهم؟ قلنا: إنهم علموا أن أولئك المتقدمين كانوا طالبين للدنيا ثم إنهم فنوا وانقرضوا فعند هذا يعلمون أنه لا فائدة في طلب الدنيا، والواجب الجد والاجتهاد في طلب الدين، والواجب على من عرف هذا أن يكون خائفا وجلا فيكون ذلك زجرا له هذا إذا قرئ بالتاء أما إذا قرئ بالنون فلا شبهة فيه لأن التقدير كأنه تعالى قال: أولم نبين لكم كيف فعلنا بهم، وليس كل ما بين لهم تبينوه"[1].

(١) مفاتيح الغيب ١٠٩/١٩.

هذا ولما كانت عقوبة الله تعالى لهم دالة على عظمة وتمام وطلاقة قدرته تعالى جاء الفاعل في " فعلنا وضربنا" دال على تلك العظمة، والباء الداخلة على الضمير العائد إليهم، والتي لا ينفك عنها معنى الإلصاق تفيد أن العذاب صار ملاصقًا لهم لا ينفك عنهم يسير معهم حيث ساروا حتى أهلكهم جميعًا.

وقوله تعالى: " وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ" جملة ثالثة تسجل على أولئك الظالمين المشركين علمهم بمصير من سبقهم، وأصل الضرب السير في الأرض استعير لضرب المثل، وهذه من الاستعارات الشائعة التي صارت كالحقيقة من كثرة استعمالها، وتقديم الجار والمجرور" لَكُم" على المضروب" الأمْثَالَ" فيه تسجيل عليهم فلا مجال للتَّفَلُّتِ من العقاب. ومجيء كلمة الأمثال مجموعة يدل على كثرتها وتنوعها، انظروا كيف أهلك الله تعالى قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح وغيرهم من الجبابرة، وإذا كانت كذلك صالحة لأخذ العبرة منها فلا بُدَّ من جعلها محط اهتمام واعتبار.

قال العلامة الألوسي" الْأَمْثَالَ أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لتعتبروا وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم وما لكم على ما لهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل إلى العذاب الآجل فتردعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصي، وجوز أن يراد من الأمثال ما هو جمع مثل بمعنى الشبيه أي بينا لكم أنهم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب"(١).

قوله تعالى:" **وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ**" بدأت هذه الآية بالواو التي عطفت هذه الجملة على ما قبلها من جمل، وقد صدرت" بالواو و قد" الدالة على حالهم وأفادت تحقق المكر منهم ، وإسناد المكر إلى

(١) روح المعاني ٢٣٥/٧.

واو الجماعة يدل على أنهم كانوا لُحمة واحدة في مكرهم ، وأنه صدر منهم جميعًا أو صدر من بعضهم وكان الباقون مقرين به راضين بوقوعه فنسب المكر لمجموعهم كما ورد في قوله تعالى:" فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا" (الشمس:١٤) فالذي عقر الناقة هو قدار بن سالف لكن قومه لما سكتوا على صنيعه ولم يردعوه وصاروا راضين بما فعل أصبحوا كالمشاركين له في العمل فنزل بهم العقاب جميعا، قال تعالى:" فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا" (الشمس:١٤)، فكذلك هؤلاء الظالمون مكروا جميعًا واستفرغوا جهدهم في رد الحق وإقرار الباطل وجعله واقعًا ملموسًا معترفًا به لا ينكره أحد، واستفرغوا كل جهدهم في ذلك بمكر ودهاء ، وإضافة المكر إلى ضمير العائد عليهم من باب إضافة المصدر إلى فاعله، وعلى كلٍ فهذا المكر الذي مكروه مكتوب في علم الله الأزلي قال تعالى:" وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ" جملة حالية من الضمير في " مكروا" وهي دالة على القصر، حيث قصرت معرفة هذا المكر على الله سبحانه قصر صفة على موصوف بطريق التقديم، والقصر يعكس بلاهة هؤلاء الظالمين لأنه ينبغي عليهم أن يكونوا موقنين أن الله الذي خلقهم وأحصى أنفاسهم وأفعالهم علم أزلًا ما يمكرونه، فمكرهم ليس بخافٍ عليه سبحانه، ويجوز التقدير وعند الله جزاء مكرهم ، وعليه قصر جزاء مكرهم على كونه عند الله تعالى لا يتعداه إلى غيره قصر صفة على موصوف، والتعبير باسم الألوهية الدال على التفرد والعظمة مما يناسب هذا المقام. قال أبو السعود:" جزاء مكرهم الذي فعلوه على أن المكر مضاف إلى فاعله أو أخذه تعالى بهم على أنه مضاف إلى مفعوله وتسميته مكرا لكونه بمقابلة مكرهم وجودا وذكرا أو لكونه في صورة المكر في الإتيان من حيث لا يشعرون وعلى التقديرين فالمراد به ما أفاده قوله عز وجل كيف فعلنا بهم لا أنه وعيد مستأنف، والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلا مع تحقق ما يوجب تركه"(١).

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/٥٨.

وقوله تعالى: "وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ " قرأ الجمهور لتزول- بكسر اللام وبنصب الفعل المضارع بعدها- فتكون (إن) نافية ولام لتزول لام الجحود، أي وما كان مكرهم زائلة منه الجبال، وهو استخفاف بهم، أي ليس مكرهم بمتجاوز مكر أمثالهم، وما هو بالذي تزول منه الجبال. وفي هذا تعريض بأن الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين الذين يريد المشركون المكر بهم لا يزعزعهم مكرهم لأنهم كالجبال الرواسي. وقرأ الكسائي وحده- بفتح اللام الأولى- من لتزول ورفع اللام الثانية على أن تكون إن مخففة من إن المؤكدة وقد أكمل إعمالها، واللام فارقة بينها وبين النافية، فيكون الكلام إثباتا لزوال الجبال من مكرهم، أي هو مكر عظيم لتزول منه الجبال لو كان لها أن تزول، أي جديرة، فهو مستعمل في معنى الجدارة والتأهل للزوال لو كانت زائلة. وهذا من المبالغة في حصول أمر شنيع أو شديد في نوعه على نحو قوله تعالى: **تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا** [سورة مريم: ٩٠] "[١]

وقال الإمام الرازي بأن "الجبال هاهنا مثل لأمر النبي- صلى الله عليه وسلم- ولأمر دين الإسلام وإعلامه ودلالته على معنى أن ثبوتها كثبوت الجبال الراسية لأن الله تعالى وعد نبيه إظهار دينه على كل الأديان. ويدل على صحة هذا المعنى قوله تعالى بعد هذه الآية: **فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله** [إبراهيم: ٤٧] أي قد وعدك الظهور عليهم والغلبة لهم. والمعنى: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، أي وكان مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال الراسيات التي هي دين محمد – صلى الله عليه وسلم- ، ودلائل شريعته"[٢]

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٥٠.

(٢) تفسير الرازي١٩/١١١.

قوله تعالى:" **فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**" هذه نهاية المشهد الذي اتحد نظمه مع بدايته فجاءت البداية والنهاية على حذو واحد، وهذا من قمة المناسبة ، والبداية كانت من قوله تعالى:" **وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ**" والنهاية :" **فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ** " وكلاهما بدأ بحرف من حروف العطف يليه أداة النهي ثم الفعل المضارع المأخوذ من نفس المادة والمبدوء بحرف التاء التي تخاطب النبي الأعظم – صلى الله عليه وسلم– ثم يأتي التعبير باسم الألوهية الوارد في سياق العظمة والقهر والمعاقبة، ثم يأتي التعبير باسم الفاعل الدال على الثبوت والدوام ليثبت ديمومة عدم غفلته سبحانه عما يفعله الظالمون، وديمومة عدم خلفه لوعده سبحانه ، فالحذو واحد وهو دال على وحده هذا المنهج وهو أنه سبحانه يفي بوعده للمظلومين، وينزل وعيده بالظالمين.

هذا وقدم قوله :" وَعْدِهِ" على قوله:" رُسُلَهُ" للدلالة على أنه سبحانه ليس من صفات إخلاف الوعد بل الواجب له سبحانه هو الوفاء بالعهد قال تعالى :" **وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ**" أي لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه، وإذا كان هذا الوفاء في مطلق عهده جل وعلا مع عموم خلقه فكيف يخذل رسله فيما وعدهم به وهم أحب خلقه إليه لا شك أن هذا هو عين المحال.

وقوله تعالى:" **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**" جاءت هذه الجملة مفصولة عما قبلها لكمال الاتصال إذ هي بمنزلة التوكيد المعنوي للجملة الأولى لأنه لا يقدر على مطلق الوفاء وكماله إلا من كان عزيزًا منتقمًا، يعز أهل طاعته ويذل أهل الشرك والمعاصي، ويصح كون الفصل لشبه كمال الاتصال وتكون خاتمة الآية جوابًا عن سؤال في النفس أثاره ما سبقها من جمل وهذا من ثراء القرآن الكريم أنه يحمل على أكثر من وجه وكلها مما يخدم المراد .

" والعزيز من صفات الله عز وجل وأسمائه الحسنى؛ قال الزجاج: هو الممتنع فلا يغلبه شيء، وقال غيره: هو القوي الغالب كل شيء، وقيل: هو الذي ليس كمثله شيء. ومن أسمائه عز وجل المعز، وهو الذي يهب العز لمن يشاء من عباده. والعز: خلاف الذل"(١).

هذا والتعبير باسم الله (العزيز) يتناسب مع إيثار التعبير باسم الألوهية لأن كمال القدرة وطلاقتها من لوازم هذا الاسم، وكذلك التعبير باسم الله (المنتقم) وهو من الفعل نقم والنقمة هي المكافأة بالعقوبة ، ولا يقدر على العقوبة إلا من كان عزيزًا منتقمًا، فكل هذه الأسماء من باب مراعاة النظير، وكلها ترسخ وتظهر كمال قدرته جل وعلا على هؤلاء المشركين الظالمين، وقد سيقت الجملة في ثوب أسلوب التوكيد وهي – أيضًا– من قبيل التذييل وهو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد "وله في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير؛ لأن المعنى يزداد به انشراحا والمقصد اتضاحا" (٢)، وقد أدى دوره في إلقاء مزيد من الطمأنينة للثلة المؤمنة عبر الأزمان في كل مكان.

(١) لسان العرب مادة : (ع. ز. ز)

(٢) الصناعتين ٣٧٣/١، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩هـ.

الخاتمـــة

- تنوعت الأساليب البلاغية في الآيات الشريفة وجاءت جامعة بين الشدة واللين وذلك على حسب المتكلم فكلام أهل النار كله مسكنة ولين وتضرع وهذا شأن الطالب المستغيث تقابل هذا اللين والخضوع عظمة في كلام الله تعالى .
- كما تنوعت الأساليب داخل الآيات الكريمة ما بين خبرية جاءت لتقرير شيء معين كتقرير صراخهم وكفرهم وردهم للآيات، وإنشائية جاءت لبيان فعل مطلوب على جهة الوجوب كذوقهم العذاب ونهيهم عن الكلام وأمرهم بالصمت في " اخسؤا".
- كان لأسلوب الاستفهام النصيب الأوفر من بين الأساليب الإنشائية في الرد على مطلب أهل النار وذلك لما يفيده هذا الأسلوب من تقرير كفرهم وردهم للآيات والتسجيل عليهم وبيان أنهم ما أُخذوا إلا بجريرة أيديهم ففيه تنبيه لهم ولغيرهم.
- كما كان للفعل المضارع النصيب الأوفر في الاستعمال(نجب دعوتك ، نتبع الرسل، تبين لكم، فلا تحسبن، ولو ترى، يصطرخون فيها ،وإن يشرك به تؤمنوا....) وذلك لما له من قدرة فائقة على رصد الأحداث وتصويرها كأنها مشاهد مرئية.
- كان للفصل والوصل بين الجمل دورٌ بارزٌ في توضيح المعاني وتقريرها وإثارة الذهن وتحفيزه، وكان لشبه كمال الاتصال النصيب الأوفر في الظهور من مواضع الفصل؛ وذلك لما ينم به عن وصل داخلي بين الجمل وتميز بتحفيز الذهن وإثارته عن طريق الإجابة على السؤال المقدر في الذهن. بينهما كان للتوسط بين الكمالين من مواضع الوصل النصيب الأوفر في الظهور من بين أقرانه.

- تعددت أساليب التوكيد في الآيات الشريفة فرأينا التوكيد بإن وبأسلوب القصر وجاءت هذه الأساليب لتؤكد حال أهل النار وما هم عليه من الغم والعذاب وتؤكد استحقاقهم له كما جاءت لتؤكد تمام فضل الله على المؤمنين وغلبته على الكافرين وعلمه بما كانوا يمكرونه .
- ولأنها مشاهد مرئية يوم القيامة جاءت على سبيل الحقيقة وندر فيها استخدام الصور البيانية التي تفتح بابًا للخيال ولا يتحد الناس في فهم المراد منها آنذاك.
- لأهل النار عدة مطالب ذكرت في حوارهم وهو طلبهم الخروج من النار والرد إلى الدنيا ليعملوا صالحا أو طلب التأخير والإمهال وحرموا من كل ما طلبوه بل أضيف عليهم من العذاب النفسي ما يزيد من آلامهم وذلك حين يفشلون في ضراعتهم واعتذارهم.
- اتحدت كلمة أهل النار في جميع المشاهد على التضرع إلى الله العلي باسم الربوبية طمعًا في نيل المزيد من إنعام الله تعالى عليهم، وبيَّنا في ثنايا البحث كيف أن التعبير بهذا الاسم حجة عليهم.
- جاءت الرد عليهم في قمة التناسب مع الأحداث الواردة في السورة القرآنية قبل ورد الحوار.
- إلى غير ذلك مما ورد في الآيات الشريفة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم أ. د/ محمود موسى حمدان.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ.
- الإيضاح في علوم البلاغة ، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت: ٧٣٩هـ)، شرح وتعليق الدكتور: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- البعث والنشور للبيهقي، لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي(ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: الشيخ عامر أحمد حيدر، الناشر: مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.
- تاج العروس. المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي(ت: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
- التحرير والتنوير، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، تأليف أ.د: عبد العظيم المطعني ، الناشر مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

- التفسير المنير ، د : وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة : الثانية ١٤١٨هـ.
- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي ، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي(ت:٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري (ت: ٧٤٩هـ)،ت: د فخر الدين قباوة الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م.
- جمهرة اللغة، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.
- الحوار القصصي تقنياته وعلاقاته السردية– دراسة أدبية، تأليف: فاتح عبد السلام، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر– بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٩م .
- خصائص التراكيب تأليف: أ. د/ محمد محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة، الطبعة الثامنة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني ، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.
- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- الصناعتين، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩هـ.
- فتحُ البيان في مقاصد القرآن، المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت: ١٣٠٧هـ)، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، عام النشر: ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م.
- قراءة في الأدب القديم ، تأليف أد: محمد محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة ١٤٣٣هـ–٢٠١٢م.
- الكتاب، لعمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (ت: ١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.
- لسان العرب. المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.
- لطائف الإشارات، المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م

- معجم العين، تأليف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.
- معجم الفروق اللغوية. لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.
- مفاتيح الغيب. أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ.
- مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.